وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة ماستر في الفلسفة

تخصص: فلسفة عامة

الموسومة بـــ:

وحدة الوجود عند باروخ اسبينوزا

إعداد الطالبتين:

حامول ناجية

ختو يمينة

إشراف الأستاذ:

راتية حاج

لجنة المناقشة

أ/ شاذلي الهواري	رئيسا
أ/ راتية حاج	مشرفا
أ/ حجاج خليل	مناقشا

السنة الجامعية: 1436هـ-1437هـ/2015م-2016م

شكر وعرفان:

نشكر الله العلي القدير على فضله العظيم علينا .

ونتقدم بجزيل الشكر والاعتراف بالجميل إلى أستاذنا المؤطر "**راتيا الحاج**" الذي ساعدنا بملاحظاته وتوجيهاته القيمة لانجاز عملنا المتواضع .

إلى كل أساتذة قسم العلوم الإنسانية على إرشاداتهم ورغم شكرنا لهم لن نوفيهم حقهم على مجوداتهم الكبيرة لإيصالنا إلى هذا اليوم .

ومن جهة أخرى إلى الأستاذ "**أيوب**"

لا يفوتنا أن نتقدم بعبارات التقدير والشكر لكل من قدم يد المساعدة من قريب وبعيد لإتمام هذا العمل .

مقدمة

مقدمة

كانت العقول البشرية أوروبية حبيسة تحت أغلال سلطة الكنيسة ورجال الدين الذين إن يمنعوا الإنسان الأوروبي من النهوض بفكره ليستطلع أسرار الطبيعة ويكتشف مختلف أوجه الحياة التي من خلال فهمه لها يحقق وجوده ولكن ذلك الركود لم يدم طويلا قد نهض الانسان بفكره ليشكل نشاطا معرفيا ، حيث ظهرت نهضة فكرية اتسمة الفترة الحديثة حين رفع العديد من المفكرين والفلاسفة لواء المعرفة و العلم وبذلك قضو على سلطة الكنيسة وأسسوا مذاهب زوانساق فلسفية من اجل بلوغ المعرفة بذاتها ، فقد وجبت حرية الفرد واستقلاله بإبداء راية فظهرت عدة ثورات علمية مهدة الطريق أمام الفلاسفة ، تخلص العقل من عالم الغيب و الخرافة ليتجه إلى الطبعة المحسوسة الواقعية فاتسمت الفلسفة الحديثة بدراسة فكرة تجلي الله في الطبيعة المحسوسة من أهم الإشكاليات التي عالجتها الفلسفة الحديثة على اختلاف مذاهبا ، إشكالية الوجوب بحيث كان لكل فلسفة صبغتها المميزة في مناقشتها وطرحها بهذه الفكرة ، ومنابرز الفلاسفة الذين كان لهم الأثر الكبير نجد باروخ سبينوزا الفيلسوف الهولندي الذي بدأ فلسفته كلها من فكرة الله إلى العالم الطبيعي ذلك من خلال وحدة هاتين الفكرتين ، الله و العالم جوهر واحد.

أهمية الموضوع:

من أجل معرفة نظرة سبينوزا لهاته الإشكالية والطريقة التي انتهجها في محاولة لحل هاته الإشكالية.

أسباب اختيار الموضوع:

1- أسباب موضوعية:

- معرفة اختلاف سبينوزا عندما تناول هذا الإشكالية مع الفلاسفة الذين سبقوه.

- معرفة إن كانت تسمية لمذهب (بوحدة الوجود) فكرة جديدة أن أنها فكرة قديمة أضافها على صبغة جديدة.

2- أسباب ذاتية

- من أجل التطلع على فكرة هذا الفيلسوف.

- توسيع رصيدنا المعلوماتي.

الإشكالية الأساسية:

إذ كانت خلاصة مذهب الوجود هنا أن الله هو العالم بما فيه فكيف بنى سبينوزا صرحه المعرفي على أساسها وجعلها أصدق؟

الفرضيات:

- أهم الانتقادات التي تعرض لها سبينوزا.

- ما هي أهم التأثيرات هذا المذهب على فلاسفة ومختلف المجالات.

الدراسات السابقة:

- لا توجد أي دراسات لهذا الموضوع على مستوى الكلية (جامعة ابن خلدون).

الصعوبات:

- قلة المصادر الخاصة بالفيلسوف.

- صعوبة في فهم أفكاره.

المنهج المتبع:

- منهج تحليلي لأننا قمنا بدراسة لأفكار سبينوزا

- نقدي: عالجنا أهم الإنتقادات التي وجهت إلى مذهب وحدة الوجود.

هيكلة البحث:

وبناءا على هذا قسمنا بحثنا إلى ثلاثة فصول رئيسية، كل فصل يتخلله مبحثين جاءت على النحو التالي: الفصل الأول عنوانه آليات ومتطلبات تطرقنا في المبحث الأول إلى أهم المفاهيم التي تتداخل مع مفهوم وحدة الوجود بالإضافة إلى حياة اسبينوزاه ومؤلفاته أما المبحث الثاني تناولنا فيه فلسفة اسبينوزاه بصفة عامة التي تحوي منهجه ونظريته في المعرفة ومذهبه ونسقه الفلسفي. وفي الفصل الثاني المعنوان بمصادر وحدة الوجود، المبحث الأول عنوانه التأصيل لوحدة الوجود عرضنا فيه نماذج منها الفلسفة الهندية واليونانية والإسلامية التي تعتبر المنهل لفكرة الوجود عند اسبينوزاه أما المبحث الثاني: خلاصه مذهب وحدة الوجود الذي تطرقنا فيه إلى أدلة إثبات وجود الله وصفات الله بالإضافة إلى وحدة الجوهر لأنها تعتبر الأساس الذي تبنى عليه وحدة الوجود عند اسبينوزاه. أما الفصل الثالث الذي عنوانه دراسته نقدية تناولنا في المبحث الأول أهم الانتقادات الموجهة إليه بصفة خاصة وإلى وحدة الوجود بصفة عامة، والمبحث الثاني أهم تأثيرات في المجالات الأخرى وأخذنا المجال العلمي أنموذجا وختمنا بحثنا هذا بخاتمة وقائمة مصادر ومراجع وفهرس للمحتويات.

الفصل الأول

آليات ومنطلقات

المبحث الأول: ضبط المفاهيم:

أولا: وحدة الوجود، وحدة الشهود، الحلول:

وحدة الوجود لغة:

وحدة في اللغة بمعنى الانفراد وهي ضد الكثرة، يقال رأيت جالسا وحده أي منفرد وتوجد برأيه أي تفرد به أما الوجود في اللغة فهو بمعنى التحقيق والحصول والثبوت والكون وهو خلاف العدم.

الحلول لغة: مصدر رباعي من حل بالمكان يحل حلولا وله ثلاث معاني:

1- حل بمعنى نزل حل بالمكان بمعنى نزل به.

2- حل بمعنى وجب.

3- حل بمعنى بلغ.

الاتحاد لغة: فهو مصدر من تحد يتحد اتحادا، وهو مرادف للاتفاق.[1]

اصطلاحا:

الحلول اصطلاحا، تجسد الخالق في المخلوق بحلوله في بعض من الإنسان و امتزاجه به امتزاجا كاملا في الطبيعة والمشيئة بحيث تتلاشى الذات الإنسانية الذات الإلاهية، الإثنينية والتغاير في الوحدة غير منفصل بين الذاتيين، كانت متميزتين فسارتا متحدين ومتجانسين، وهو ما يعرف بالحول السرياني وعرفت هذه الفكرة في النصرانية في فكرة الاتحاد اللاهوت بالناسوت، أو حلول اللاهوت في الناسوت إذ يزعمون أن الله حل في المسيح الإنسان ليتكون المسيح الإلاه .[2]

[1] موقع الالكتروني.

[2] د مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المجلد 02، ط04، دار الندى العالمية للطباعة والنشر، ص: 1050.

وحدة الوجود:

عقيدة الحادية هندية كما قال بها فلاسفة اليونان القدامى وتبعهم عليها بعض المذاهب الفلسفية المعاصرة وغلاف الصوفية وتقوم هذه المقولة على الوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر.[1]

وحدة الوجود:

معناها أن الله والطبيعة بشتى مظاهرها شيء واحد ولا إثنينية بل كل شيء منها والله سبحانه وتعالى عما يصفون، وأوضح ما قرأت في هذا الباب قول طاغور الشهير:«الله حقيقة دائمة الإتحاد بشتى الموجودات، وتتجلى في مختلف محتويات الكون، وتتخذ بظاهر متنوعة تبدو في أشكال الطبيعة المتعددة من إنسان وحيوان وجماد ونبات».[2]

الإتحاد:

يعرف على أنه ثمود ووجود واحد مطلق من حيث جميع الأشياء الموجودة بوجود ذلك الواحد (عند الصوفية).[3]

ثانيا: التعريف باسبينوزا ومصنفاته:

حياة سبينوزا:

ولد باروخ سيتوزا بأمستردام في الرابع والعشرين من نوفمبر سنة 1632م، وهو ينتمي إلى أسرة يهودية برتغالية، وقد أراد أبواه أن ينشئ تنشئة دينية فبعثاه إلى مدرسة حافام مشهور يدعى مورتيرا فتعلم على يديه اللغة العبرية، وتلقن أصول التلموذ، ثم التمس اسبينوزا دراسة اللغة اللاتينية لدى طيب يدعى فان دن انده (Vandenende) مما أضاء في عينيه نورا جديدا وساعده على

[1] د مانع بن حماد الجهني، ص: 1169.

[2] محمد جواد مغنية، مذاهب فلسفية وقاموس مصطلحات، دار الجواد، بيروت، لبنان، ص: 231.

[3] جميل صليبيا، المعجم الفلسفة بالألفاظ العربية والإنجليزية و.....، ج1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ص: 26.

اكتشاف فلاسفة القرون الوسطى، وعلى رأسهم القديس توماس الإكويني، وفلاسفة العصر الجديدة من أمثال يكون وهو بس وديكارت، ونظرا إلى ما دأب عليه سبينوزا، منذ كان في الخامسة عشر من عمره، من مجادلة ومصاحبة كانتا تحيران رجال الدين، إذ حرضوا قضاة المدينة على الحكم عليه بحظر الإقامة، فلجأ إلى إحدى ضواحي أمستردام، بعد ما لقيه من محاولة اغتيال، وبقي سبينوزا مدة من الزمن بأوفركرك حيث كان لابد له من تعلم حرفة يقتات منها، فبرع في صقل الزجاج الذي تصنع منه عدسات المقراب والمرصد، ثم استقر بقرية رينبرغ دون أن يقطع الصلة بأصدقائه القدامى، وهم: سيمون دي فريس، وبيار بالنغ، وبازغ بلس.[1]

وسنة 1661م، شرع سبينوزا في تأليف «رسالة في إصلاح العقل» إلا أنه لم يتممها، ثم انتقل إلى فور برق حيث أصدر، سنة 1663م، الكتاب الوحيد الذي يحمل اسمه وهو كتاب «مبادئ فلسفة ديكارت» ويتبعه في نفس المجلد كتاب «خواطر ميتافيزيقية».

وفي نفس المدينة، تعرف اسبينوزا على أصدقاء جدد من بينهم العالم كريستيان هويغنس، ورئيس الحزب الليبيرالي المناهض لأمراء أورنجا، جان دي ويت، ولعل اهتمام سبينوزا بأحداث الساعة هو ما شغله عن إتمام الرسالة في إصلاح العقل، وما عطل إنجاز «علم الأخلاق»، من أجل تأليف «الرسالة في اللاهوت والسياسة» 1670م، تلك الرسالة التي تم تأليفها في جهنم، من قبل يهودي مارق موتد وبمعونة الشيطان، وقد صدرت هذه الرسالة خفية الاسم، نظرا إلى ظروف القمع و الاضطهاد التي كانت سائدة آنذاك، وهي ظروف حثت سبينوزا على الهجرة إلى مدينة لاهاي.

تلقى سبينوزا سنة 1973م، عرضا من أمير بافاريا للتدريس بجامعة هايدلبرغ، فرفض هذا العرض خوفا من أن يحد ذلك من حريته في التفكير والتفلسف الحق.

وفي نهاية جويلية 1675م، بادر سبينوزا بطبع «علم الأخلاق» بعد أن قضى في تأليفه خمسة عشر عاما، إلا أنه عدل أخيرا عن طبعه عندما بلغه أن جمعا من العلماء ورجال الدين كانوا له

[1] باروخ استينوزا، علم الأخلاق، ت: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، ص: 09.

بالمرصاد، أما «الرسالة السياسية» فقد وافاه الأجل قبل أن يكملها، في الواحد والعشرين من فيفري 1677م، وفي نفس السنة[1]، قام نفر من أصدقائه ينشر مؤلفاته دون ذكر اسم الناشر ولا مكان الطبع، مقتصرين على الحرف الأول من اسم سبينوزا ولقبه.[2]

مصنفاته:

اتخذ اللاتينية لسانا يحرر به، وكان أول ما كتب 1660م رسالة «في مبادئ فلسفة ديكارت مبرهنة على الطريقة الهندسية» كتمهيد و مدخل لفلسفته الخاصة، وهذا أمر جدير بالذكر، ثم عرض فلسفته في «الرسالة الموجزة في الله والإنسان وسعادته» 1660م كتبها لأصدقائه المسحيين و لم تنشر، وقد ضاع الأصل وبقيت ترجمتان هو لانديتان نشرتا سنة 1852م، ثم وضع رسالة «في إصلاح العقل » هي بمثابة مقدمة في المنهج وفي قيمة المعرفة، أو هي من طراز «المنطق الجديد» لفرنسيس يكون، و «قواعد تدبير العقل» و «المقال في المنهج» «الديكارت، و البحث عن الحقيقة» لمالبرانش وكلها كتب تريد الاستغناء عن منطق أرسطو وإقامة المنهج العلمي غير أن سبينوزا ترك الرسالة ناقصة، فنشرت كما هي بعد وفاته، وكان الجدل شديدا حول مسائل الوحي والنبوة والمعجزات وحرية الاعتقاد، فدون في ذلك، «الرسالة اللاهوتية السياسية» نشرت سنة 1670م غفلا من اسم المؤلف، فعدت خلاصة الكفر، وكان أثناء تلك السنين يعمل في كتابه الأكبر «الأخلاق» ويوالي تنقيحه وتفصيله، ويطلع أخصائه على ما ينجز منه، فيتدارسونه ويكتبون إليه فيما يصادفون من مشكلات وكان قد خطر عليهم إطلاع أي إنسان على ما لديهم منه قبل الاستفاق من خلقه، ورفض الإذن لأحدهم بإطلاع ليبتز ثم أطلعه هو على الكتاب بعد أن توثقت الصلة بينهما، وهم غير مرة بنشره، فكان يحجم خشية الفتنة، فلم ينشر الكتاب إلا بعد

[1] نفس المصدر السابق، باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، ص: 10.

[2] المصدر نفسه، ص: 11.

وفاته، وفي أواخر حياته 1675م-1677م دون «الرسالة السياسية» و لم يتمها، فنشرت كما هي بعد وفاته كذلك.[1]

رسالة في الدين والدولة، قد تكون هذه الرسالة أقل كتب الفيلسوف لذة لنا اليوم، ولعل أول ما دعى إلى التصغير من قيمتها أن سبينوزا قد قتل فيها موضوعه بحثا وضحه إيضاحا لم يعد بعده قول لقائل، والكاتب الذي هذا شأنه لابد أن تنحدر أرائه إلى أوساط المثقفين فتصبح في اعتبارهم أدنى إلى الابتذال لأنها فقدت كل ما يدعوا إلى مواصلة البحث والتفكير من غموض وخفاء، ولقد أصيبت كتب فولتير بما أصيبت به رسالة سبينوزا في الدين والدولة لإسرافهما في التدليل والتوضيح، وأساس هذا الكتاب هو أن لغة الإنجيل قد جاءت وكلها[2] مجازات واستعارات، وهذا التزويق البياني متعمد فيه، أولا بسبب النزعة الشرقية إلى الأدب الرفيع وميله إلى تزويق اللفظ، وثانيا لأن الأنبياء والقدسيين لابد لكي يحملوا الناس على اعتناق مذاهبهم أن يثيروا الخيال، ولذا تراهم يبذلون وسعهم لطبع أنفسهم وكتبهم بطابع الشعب الذي يعيشون فيه، فقد كتب كل كتاب منزل لشعب بعينه أولا، وللجنس البشرى كله ثانيا، فيجب إذن أن يلائم ما فيه عقلية الشعب ما وجد السبيل إلى ذلك، إن الكتب المنزلة لا تفسر الأشياء بأسبابها، ولكنها ترويها بأسلوب يؤثر في نفوس الناس وخاصة جمهورهم لكي تحملهم على التفاني في العقيدة «فليس موضوع الكتاب المنزل إقناع العقل، بل جذب الخيال والسيطرة عليه» ولهذا يكثر فيه ذكر المعجزات[3] ويميل الإنسان إلى العقيدة بأن الله يحطم النظام الطبيعي للحوادث من أجلهم، فترى اليهود يعللون إطالة النهار وتأخير غروب الشمس بأنها معجزة تثبت أنهم شعب الله المختار.[4]

أما أكبر كتبه فهو كتاب الأخلاق فهو جامع لأهم أفكاره بنهج فيه المنهج الهندسي، وهو ما يتفق مع مذهب وحدة الوجود، و الكتاب مقسم إلى خمس مقالات.

---

[1] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف كورنيش النيل، القاهرة، ط5، 1919م، ص: 107.

[2] زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936م، ص: 140.

[3] المرجع نفسه، زكي نجيب محمود، ص: 141.

[4] المرجع نفسه، ص: 142.

- الأولى في الله.
- والثانية في النفس.
- والثالثة في الانفعالات أصلها وطبيعتها
- والرابعة في عبودية الإنسان.
- والخامسة في قوة العقل أو حرية الإنسان.[1]

ثالثا:المرجعيات الفكرية والدينية لفلسفة باروخ سبينوزا:

لاشك أن فلسفة نيقولا مالرانش فتحت السبيل أمام العديد من المذاهب والأفكار الفلسفية إما بالنقد وإما بالتعديل إما بالتطور، وعلى غرار كل من بركلي وهيوم نجد باروخ سبينوزا الذي كان تأثير فلسفة ماليراش كبيرا بحيث فتحت الطريق على مصاريعه أمامه لكي يتجه ويقوم على تقديم مذهب من أخطر المذاهب الفلسفية وهو مذهب وحدة الوجود وتتمثل خطورته في زمن يهدم الأديان السماوية المترلة هدما ويأتي الحياة من قواعدها.[2]

كما بدأ سبينوزا دراساته التورات والثمود وشعر القدماء وعلم المحدثين، كما انكب على دراسة الآراء الفلسفية لمعاصريه وقام بتحليل الميتافيزيقيا[3] الخلفية التي وجدها في كتابات موسى ابن ميمون وليفي بن جرسون وابن جبرول، وحسدا من اليهود وتوافر على دراسة الأخلاق الميتافيزيقية عند غير اليهود أمثال أفلاطون، وأرسطو، إيفور وجيوزدانوا وديكارت، كما درس اللاتينية على يد الأستاذ الهولندي فان دي إندي الذي علمه بالإضافة إلى العلم الجديد الذي يتمثل في أعمال كوبر نيقوس، وجاليلو، وكيلروهارفي، بالإضافة إلى هذا الرياضيات وذلك من خلال انتهاج طريقة خاصة في البحث وهي الطريقة الاستنباطية الرياضية، كأن الرياضيات كما استهوت

[1] عبد القادر تومي، أعلام الفلسفة الغربية في العصر الحديث، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 1432م-2011م، ص: 85.

[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة مت ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية ، ص: 195.

[3] الميتافيزيقا، مصطلح يطلق على كل فكرة أو مبدأ أو حكم لا يعتمد على الحس و التجربة.

ديكارت بحيث اعتقد أن الرياضيات في المفتاح الأمثل لحل أسرار الكون في اكتشاف قوانينه لذلك اتخذ من الهندسة نموذجا، مثل ما الهندسة تبدأ القضايا صادقة بذاتها لا تحتاج إلى برهان[1] مثل البديهيات والمسلمات والصادرات فهو يرى أن أيضا البحث عن الحقيقة ينبغي أن يبدأ بقضايا صادقة بذاتها تتخذ نقطة انطلاقا من أجل أن نبني صرحا معرفيا بشريا تهدف من أجله إلى تحقيق السعادة القصوى دائمة.

كما تأثر سبينوزا في المجال السياسي بهوبز وذلك من خلال توضيح حقائق سياسية بعيها التاريخ التفكير في التاريخ اليهودي مثال العلاقات المرغوب فيها بين الكنيسة والدولة بحيث وظف إلى فحواها أفكار التي قال بها هوبر في نظريته السياسية (العقد الاجتماعي).[2]

أيضا فيما يتعلق بتفسير الكتب المقدسة بحيث اتبع المنهج الذي كان منبعا عند الشراح المسلمين في شروحهم على أعمال أرسطو، فمثلا يترك ابن رشد في شرحه «للخطابة» الأمثلة التي يوردها أرسطو من الخطباء والشعراء والتراجيدين اليونان، يصنع بدلها أمثلة من الخطابة والشعر الغربي والنثر أيضا حتى يعيد صياغة النظريات العلمية والأدبية ابتداء من مادة جديدة وحتى يملى تأييد هاته النظريات وتطويرها وإكمال ما نقص منها بالإضافة إلى تأثير آخر والذي يتمثل في الأصوليون، وذلك من خلال كتابه (اللاهون والسياسة عندما تحدث عن المنهج التفسير بحيث يقول: بعد دراسة الخطوات الثلاثة لبحث التاريخي بحب دراسة الأشياء الأكثر عمومية ثم الانتقال إلى أقل شمولا إذا حدث تعارض يمكن دراسة بالمكان والزمان الذي كتب فيه وهذا ما نجده عند الأصوليون الذين درسوا العام والخاص كجزء من الأبحاث اللغوية فالعام ما ينطبق على الناس جميعا والخاص على فئة معينة أو خاصة وأيضا من شروطهم العلم بغياب النزول».

[1] برهان، المحدثون يطلقون هذا اللفظ على الحجة العقلية والتجريبية معا.

[2] باروخ سبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسية، د حسن حنفي، مراجعة، د فؤاد زكريا، ط1، 2005م، دار التنوير، ص: 16.

وتلتمس تأثير آخر سبينوزا الفرقة المسلمة المعتزلة* وذلك من خلال رفض أي وجه نسبة بين الله والإنسان (التنزيه) وذلك من خلال قوله سبينوزا.

تصور الله كمشرع أو كملك أو كأمير أو كحاكم أو على أقصى تقويم موجود عادل ورحيم فيصف بكل الصفات الإنسانية التي يجب إبعادها عن الطبيعة الإلهية.

بالإضافة إلى كل هاته التأثيرات نجد عمل سبينوزا العظيم يعرض في شكل نسق استنباط استنتاجي على طريقة إقليدس الأخلاق[1].

وأيضا درس اللغة اللاتينية حتى استوعبها وعن طريقها استطاع أن يطالع تراث الفكر الأوربي سواء منه القديم والأوسط وإطلاعه على فلسفة الذربين التي صادفت منه إعجابا عظيما .

وأيضا فلسفة برونو ذلك التأثير العظيم الذي انفق حياته في التجوال من بلد إلى آخر، والانتقال من عقيدة إلى عقيدة باحثا داهشا مرتابا، والذي حكمت عليه محكمة التفتيش ولآخر الأمر أن يقتل من «غير أن يراق دمه» أي أن يحرق حيث وأول ما استدعى نظر سبينوزا من آراء برونو هي فكرته عن وحدة الوجود فكل الحقيقة واحدة في عنصرها واحدة في علتها وهذه الحقيقة شيء واحد كما ارتأى أن العقل والمادة شيء واحد فكل ذرة من تتألف منه الحقيقة مركب من عنصر مادي وعنصر روحي قد امتزج بحيث لا يقبلان التجزئة والانفصال وموضوع الفلسفة هو أن تدرك وحدة الوجود في تعدد مظاهره وأن ترى العقل في المادة و المادة في العقل[2] .

لكنه فوق ذلك كله مدين ديكارت بكثير من فلسفته وتفكيره فقد استوقفه ما ذهب إليه ديكارت من أن الوجود ينحل إلى عنصرين، فالمادة كلها تنطوي تحت عنصر متجانس، والعقل كله يندرج تحت عنصر آخر متجانس، ولقد أتى هذا التقسيم من سبينوزا نزعة أصيلة فيه نحو التوحيد، وأبى إلا أن يكون الكون بكل ما فيه عنصرا واحدا، كذلك استدعى نظره من فلسفة

* **المعتزلة:** من أهم الفرق الكلامية، نشأت على يد واصل بن عطاء مبدؤها الأساسي هو النظر العقلي في المسائل الدينية.

[1] نفس المصدر السابق، باروخ استنوزا، رسالة اللاهوت والسياسة، ص: 25.

[2] المرجع السابق، إبراهيم مصطفى إبراهيم، ص: 132.

ديكارت تفسيره للعالم كله، ماعدا الله والنفس، بالقوانين الآلية والرياضية، وهي فكرة بدأت عند برونو وجاليلو، ولعلها كانت صدى لتقدم الصناعة الآلية في المدن الإيطالية، فقد زعم (ديكارت) أن الله قد دفع العالم دفعة واحدة منذ البداية، كانت نتيجتها كل هذه الحركات التي تطرأ على الأجسام المادية كائنة ما كانت، فكل حركة من حيوان أو إنسان إن هي إلا نتيجة حتمية آلية لتلك الدفعة الإلهية الأولى، وإذن العالم كله بما فيه من أجسام آلة تسير مجبرة، ولكن خارج هذا العالم الآلي إنها، كما أن داخل جسم الإنسان روحا، وهنا وقف ديكارت فجاء سبينوزا وتناول الكون كله مادة وروحا وخالقا ومخلوقا، وصب الجميع في وحدة، لا تنقسم ولا تتجزأ.

تلك كانت المصادر العقلية التي استقى منها سبينوزا فلسفة، ذلك الفيلسوف الذي كان يبدو راضيا وادعا وفي صدره لا يهدأ ولا يستقر وقد سيق في سنة 1656م إلى محكمة من آباء الكنيسة اليهودية فسأله هؤلاء: أصحيح أنك زعمت لأصدقائك أن الله جسدا، هو العالم ولا ندري بماذا أجاب ثم أصدروا حكمهم عليه بالكفر.[1]

[1] المرجع السابق، زكي نجيب، ص: 132.

المبحث الثاني: فلسفته

تأثرت فلسفة سبينوزا بالفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وتبنى آراء ديكـــارت في أن الفكر والمادة هما النظامان الأساسيان للواقع، وأن العالم المادي ليس سوى أجزاء من المادة تتحرك وتتفاعل وفق قوانين سببية، إلا أنه في كتابه الأخلاق (نشر بعد موته بقليل)، طور أفكار ديكارت بطرق غير تقليدية تماما، ادعى سبينوزا بأن الإله أو الطبيعة[1] هي المادة الحقيقية، ورغم أن الفكـــر والمادة هما من الصفات المتناهية للإله، وأن كل الأشياء الفانية (مثل عقول البشر وأجسامهم) مجرد أشكال أو حالات من صفات الله لم يترك سبينوزا مجالا لأي استثناءات للسببية منكرا الإرادة الحرة للبشرية والإله، إلا أنه رأى على أي حال، أن حرية العقل يمكن أن تحقق بالفهم العقلاني لمكاننا في الطبيعة وخضوعنا لقوانينها، خاصة قانون الانفعالات.

وقد تعددت روافد فلسفة سبينوزا فكانت من بينها روافد يهودية، ولكنه كان يـــرفض صحة القول بدقة أسفار العهد القديم ويرفض دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار، وقد تأثر كثيرا بفلاسفة العصور الوسطى من اليهود مثل موسى بن ميمون وابن جبرول وهذان كـــان متـــأثرين بالفلاسفة الإسلاميين الذين، جمعوا في تصوراتهم، الله والخلق والكون، وبين الإســـلام والمشـــائية والأفلاطونية المحدثة.[2]

أولا: منهجه ونظريته في المعرفة:

تشابه البرنامج الفلسفي لاسبينوزا في أحد المستويات هو وبرنامجي ديكارت ولاينتز ويختلـــف عنه في المستوى الآخر، ويرجع الاختلاف إلى أن نصيب اسبينوزا مما يصح تسميته بمباراة الوجودية

[1] الطبيعة: تطلق كلمة طبيعة على السجية والصفات الذاتية والمقابلة للمكتسبة.

[2] نفس المرجع السابق، عبد القادر تومي، أعلام الفلسفة الغربية، ص: 86.

كان أكبر من ديكارت ولايبنتز بالرغم من أنهما قد شعرا أيضا بأن فلسفتهما قد اتصفت بما يفوق الأهمية النظرية، فلقد اعتقد سبينوزا أن الاهتداء إلى سعادة راسخة دائما يعتمد على إنجاز برنامجه[1].

ويتفق اسبينوزا وديكارت ولايبنتز على أنه ليس بالإمكان القول بأن لدينا معرفة موثوق منها وجديرة بهذا الاسم ما لم يهتد إلى اليقين الكامل، فأن تعرف شيئا يعني أن تعرفه معرفة يقينه كاملة أو لا تعرفه معرفة حقيقية على الإطلاق، وهناك معيار أوحد فقط لليقين الحقيقي الضرورة المنطقية[2]، فالقضايا المنطقية الضرورية يقينية بصفة مطلقة، ومن ثم تكون القضايا الضرورية منطقيا، أو القضايا التي تستنتج منطقيا من قضايا منطقية ضرورية أو من التعاريف البسيطة هي الجديرة باسم المعرفة الحقة ويقول اسبينوزا: «أصف الشيء بالمحال، إذا دل وجوده على تناقض، واصفه بالضروري عندما يدل لا وجوده على تناقض ... عندما تعتمد ضرورة أو استحالة طبيعته على علل غير معروفة ... غير أن اليقين ليس بالمعيار الأوحد المعرفة الحقة عند اسبينوزا، فهناك معيار آخر، فإذا كانت المعرفة حقيقية فإنها يجب أن تستوفي حق الشيء المعروف» فلا يكفي أن تدرك الضرورة المنطقية[3] فيجب أن يتوافر للشخص إدراكا كافيا وكاملا لطباعة أو ماهيات الأشياء المشار إليها فيها.

وهكذا اقترح اسبينوزا وضع قائمة بما سماه جميع حالات * الإدراك قاصدا تحديد ماهية الحالات التي سيعتمد عليها الاهتداء إلى النتيجة التي اتجه لتحقيقها، فلقد اكتشف أن هناك أربع حالات أساسية من حالات الإدراك.

- الإدراك المستند إلى الرأي المتداول أو القيل والقال.

---

[1] ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ت.د، أحمد حمدي محمود، مهرجان القراءة للجميع، 97، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: 87.

[2] الضرورة المنطقية، هي الضرورة التي يقتضيها مبدأ عدم التناقض، مثال ذلك أن (أ) لا يكون مساويا لـــ (ج) إلا إذا كان كل منهما مساويا لشيء ثالث مثل (ب)، فإذا فرضنا أن (ا:ب) و (ج:ب) لزم عن ذلك أن (أ:ج).

[3] المرجع السابق، ريتشارد شافت، رواد الفلسفة الحديثة ، ص: 88.

* **الإدراك:** بعض الفلاسفة يحدد معنى الإدراك، فيطلقه على الإحساس وحده، وحينئذ يكون أخص من العلم، أو هو شعور للشخص، بالمؤثر الخارجي والرد على هذا المؤثر بصورة موافقة.

- الإدراك المترتب على التجربة وحسب.

- الإدراك الناتج عن استخلاص ماهية شيء ما من شيء آخر ولكنه ليس كافيا.

- وأخيرا هناك الإدراك الذي يظهر عندما يدرك شيء ما من خلال ماهيته فحسب، أو من خلال معرفة علته القريبة.[1]

لابد من التفرقة بين منهجين: المنهج الذي يتعين استعماله في ميدان البحث الميتافيزيقي، والمنهج الآخر الذي بالمقدور إتباعه بمجرد تحقيق نتائج يقينية حاسمة حتى تصاغ المعرفة برمتها في شكل نسقي منتظم.

والمنهج الأول، ويمكن تسميته (المنهج الصاعد) قد ركز اسبينوزا الكلام عليه في كتاب (عند الارتقاء بالفهم**) وغايته هو النهوض بالفهم عنه الفرد إلى أن تتحقق معرفة أغلب المسائل الأساسية الميتافيزيقيا.

غير أن هذه الطريقة لم تكن هي الطريقة التي اتبعها في كتاب الأخلاق ففي هذا الكتاب اتبع منهجا يصح وصفه (بالمنهج النازل) وفيه يبدأ بطرح هذه الحقائق عن الله والعالم في صورة تعاريف، ثم يعمل على استخلاص متضمناتها المنطقية للأشياء الأكثر جزئية، ولا تناقض بين المنهجين، والمنهج الصاعد هو المنهج الذي يبدأ به الميتافيزيقا، أما المنهج النازل فهو منهج مكمل للمنهج الأول.[2]

ويتفق اسبينوزا ولايبنتز في رفض ما أشار إليه ديكارت عن تعذر اعتمادنا على أفكارنا قبل أن نثبت مدى الارتكان إليها، وهو ما حاول ديكارت عرضه بأن أثبت أن الكثير من أفكارنا وبخاصة المستمدة من التجربة الحسية لا يصح أن ينظر إليها على أنها يقينية غير أن اسبينوزا قد تماثل ولايبنتز أيضا فأعترف بأن ديكارت عندما وضع جميع أفكاره محل تساؤل فإنه ألفى نفسه قد

[1] المرجع السابق، ريتشارد شاخت، ص: 89.

** الفهم: هو تصور المعنى من لفظ المخاطب.

[2] المرجع السابق، ريتشارد شافت، رواد الفلسفة الحديثة، ص: 90.

تورط في مأزق الشك، الذي لم يستطع أن يخرج منه بطريقة مشروعة، لأنه لو حاول ذلك فإنه سيضطر إلى الارتكان على بعض أنواع الأفكار ذاتها التي تشك فيها، واعتقد اسبينوزا لأنه أما أن تكون بعض الأفكار التي في حوزتنا ذات حقيقة تعلو على كل تساؤل ولا يتعين الشك فيها، أو تكون جميع المعارف الحقة مستحيلة، ويتفق ولايبنتز بأن الحالة الأولى هي الصحيحة، وعلى حد قوله فمن الوقائع المسلم بها وجود بعض الأفكار الحقيقة لدينا، واعتقد أن قانون، عدم التناقض لا يصح أن يكون مثار للتساؤل، لأن كل شيء يعد مسألة منطقية فحسب يجوز التسليم بحقيقته بدون أدنى تردد، وما يتبع منطقيا تعريف شيء آخر يعتبر صحيحا بطبيعة الحال شريطة أن يكون التعريف ذاته صحيح منطقي، باختصار فإن باستطاعتنا أن نواصل تقدمنا دون حاجة للبدء بإثبات عدم وجود شيطان خبيث ربما يدفعنا إلى الظن* بأن شيئا ما سيتبع منطقيا التعريف الذي استندنا إليه، بينما لا يوجد في واقع الأمر مثل هذا الشيء.[1]

ثم يدرس مناهج التفسير كشعور فكري، ثم ينتهي بعد ذلك إلى السلوك، والحياة العملية في دراسة الصلة بين الدين والدولة، ونظام الحكم الأمثل في الشعور العملي، ومع ذلك +فالتفسير عند سبينوزا هو[2] المسألة العامة التي تضم كثيرا من المسائل النقدية والعملية على السواء والتفسير ليس حكرا على فرد معين، أو على سلطة بعينها، بل لكل فرد الحرية المطلقة في أن يفسر كما يشاء وفي أن يؤمن وأن يتصور العقائد كما يريد، وفي أن يفسر الكتاب على مستوى فهمه، إذ أن الكتاب نفسه قد دون على مستوى فهم العامة، يرفض سبينوزا سلطة الكنيسة في التفسير، وما تدعيه من حق في تفسير الكتاب المقدس، كما رفضها لوثر من قبل والله لا يحرم على الفرد حرية البحث ولا يمنعه حقه في التفكير والفهم والتفسير، يعتمد سبينوزا في تحليله للكتاب على المبدأ

* الظن، الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك.

[1] المرجع السابقت، ريستشارد شاخت، ص: 91.

[2] نفس المصدر السابق، باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص: 35.

البروتستانتي* الكتاب وحده دون اللجوء إلى سلطة آباء الكنيسة أو التراث المسيحي لذلك يملئ سبينوزا الرسالة بالشواهد النقلية من الكتاب المقدس ولا يضيف على أقوال الأنبياء شيئا، ولو أنه يلجأ في بعض الأحيان في دراسته لتاريخ العبريين إلى التراث اليهودي أو ببعض النظريات الفلسفية عند ابن ميمون، ويرفض اسبينوزا كل التفسيرات التي تقوم على الهوى وعلى الخرافة وعلى الأوهام، فهي كلها بدع تؤخذ على أنها كلام الله، لذلك يقترح سبينوزا منهجا آخر لتفسير النص مثل منهج تفسير الطبيعة، يقوم على [1] الملاحظة والتجربة وعلى جمع المعطيات اليقينية ووضع الفروض، واستخلاص النتائج وفي حالة الكتاب يكون منهجا لاستقصاء الحقائق التاريخية، والانتهاء منها إلى أفكار مؤلفي الأسفار، وبذلك تضمن صحة النتائج كما نضمن صحة المعرفة التي نحصل عليها بالنور الفطري** من الموضوعات التي لا يمكن معرفتها بالنور الفطري مثل قصص الأنبياء ووحيهم وقصص المعجزات، أي الروايات عن وقائع فارقة للعادة في الطبيعة تكيفت حسب آراء الرواة وأحكامهم السابقة، هؤلاء الذين نقولها، والوحي الذي تكيف مع آراء الأنبياء، أي بعض الموضوعات التي تتعدى حدود المعرفة الإنسانية، يعني أنها تتطلب استقصاء تاريخيا، لذلك يجب أن نستخلص معرفتنا بالطبيعة من الطبيعة نفسها، فصح أننا نستطيع إثبات التعليم الخلقية لا المعجزات، يمكنها إثبات المصدر الإلهي للكتاب، و يتضمن البحث التاريخي خطوات ثلاث:

- معرفة خصائص وطبيعة اللغة التي دونت بها أسفار الكتاب المقدس، والتي تحدث بها مؤلفوها، وبذلك يمكننا معرفة معاني النصوص، ولكن هذه الخطوة يصعب القيام بها فليس لدينا معرفة كاملة باللغة العبرية[2].

* البروتستانتي: أحد مذاهب أو أشكال الإيمان في الدين المسيحي، تعود أصول المذهب إلى الحركة الإصلاحية التي قامت في القرن السادس عشر، هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا (وكيبديا الموسوعة الحرة)).

[1] نفس المصدر السابق، باروخ استنوزا، رسالة اللاهوت والسياسة ، ص: 36.

** النور الفطري: هو العقل الفطري من جهة ما هو مجموعة مبادئ بديهية لا يتطرق غليها الشك.

[2] نفس المصدر السابق، باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص: 37.

- جمع النصوص وفهرستها في موضوعات رئيسية، حتى يمكن استعمال النصوص التي تتعلق بنفس الموضوع مرة واحدة، يجب إذن تحويل الكتب المقدسة إلى معاجم مفهرسة، حتى يسهل استعمالها حسب الموضوع.[1]

- معرفة الظروف والملابسات التي كتبت فيها الرواية، أي معرفة حياة مؤلف السفر، وتقاليده وأخلاقه، والغاية من السفر، ومناسبته، و عصره، ثم مصير السفر نفسه، جمعه، ونقله، ونسخه، والاختلافات بين النسخ وتقنينها، وتحليلها حتى يمكن التفرقة بين آليات التشريع وآيات الأخلاق.[2]

يشدد سبينوزا النكير على العوام بسبب تشبثهم* الانفعالات لا بالعقل وتصديقهم بالأوهام، وكذلك على أصحاب النور الإلهي الساعين في اعتقاده، إلى إطفاء نور العقل وإلى إثارة دهشة العوام.

ولذلك اختار الإنكباب على الكتاب المقدس بحرية ذهنية كاملة استنادا إلى النور الفطري بعيدا عن أملاءات الضمير الجمعي فرسالته في اللاهوت والسياسة هي في العمق لقد حاد لتأويلات اللاهوت، وتهويلاتهم الباطنية أو التخيلية، المخالفة في اعتباره لصريح وروح المتن الكتابي، فالدين لا يحتاج إلى محسنات خرافية، أو إلى الإفراط في التقديس كما يعتقد الكهنوت.

لقد أصبحت التقوى وأصبح الدين أسرارا ممتنعة، وأصبح أصحاب النور الإلهي لا يعرفون إلا بشدة احتقارهم للعقل وبحطهم من شأن الذهن ونفورهم منه وقولهم إنه فاسد بالطبع.[3]

تقوم الخرافة في اعتباره على التمني والحقد والغضب والخداع، أي على أقوى الإنفعالات ويرجع الخرافة إلى الخوف والتقلب المستمر واللانهائي بين الخوف والرجاء.

---

[1] المصدر السابق، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص: 38.

[2] المصدر نفسه ، ص: 39.

* الانفعالات: شيء يجري على خلاف ما يجري به الأمر الذي هو بالتمييز والفكر.

[3] هادي أركون: منهج سبينوزا في قراءة الكتاب المقدس الحوار المتمدن، العدد 47، 2015م.

فالأفكار الموحى بها للأنبياء حسب سبينوزا هي طاعة الله بروح خالصة وذلك من خلال ممارسة العدل والإحسان، ومن هنا فلابد من التجرد من الخرافات، أيا كانت للوقوف على حقائق العهدين الابتعاد عن التهويلات الكهنوتية والسياسية.

يوجه سبينوزا نقدا لاذعا للاهوتيين وتأويلاتهم البعيدة للكتاب المقدس، ويرجعها إلى الرغبة في التسيد على الآخرين لا إلى طاعة تعاليم الروح القدس وبث الإحسان بين الناس.

نظرية المعرفة:

تتسم نظرية سبينوزا في المعرفة، كمذهبه عموما، بطابعها المادي والعقلاني، وهو يميز بين مستويات مختلفة للمعرفة، أدناها المعرفة القائمة على (الخيال) تلك هي التصورات المستندة إلى الإدراك الحسي للعالم الخارجي.

ولكن التجربة الحسية التي تستقى منها مثل هذه المعرفة، (غامضة)، عشوائية ومهلهلة وبعدها تأتي المعرفة القائمة على العقل المعرفة* العقلية الاستدلالية، وفي هذا النوع من المعرفة تستنتج الحقائق بالبرهان.

وتعود أفضلية المعرفة، القائمة على العقل، إلى كونها يقينية، وإلى وضوح وتميز الحقائق المحصلة بواسطتها، أما محدوديتها فتكمن في أنها ليت معرفة مباشرة، وثالث أنواع المعرفة، وأرفعها هو المعرفة التي تستند إلى العقل أيضا، ولكن بدون توسط البرهان، إنما حقائق عيانية (حدسية)**، يدركها العقل مباشرة، وهي يقينية، كالحقائق البرهانية، ولكنها أكثر منها وضوحا وتميزا والشكل الأول من المعرفة حسي، أما الثاني والثالث عقليان، وتتجلى نزعة سبينوزا العقلانية واضحة في تقييمه لكل من هذه الأشكال، فهو يحط من قيمة المعرفة الحسية ليرفع من شأن العقل، وينكر

* المعرفة: إدراك الأشياء وتصورها وإدراك الشيء بإحدى الحواس ومنها العلم.

** حدسية: مذهب يرى أن للحدس المكان الأول في تكوين المعرفة أو تطلق على المذاهب التي تقرر أن المعرفة تستند إلى الحدس العقلي.

ليقينية المعارف، ومن هذه الناحية تبدو نزعة سبينوزا العقلانية أشد جلاء منها لدى سالفه ديكارت.[1]

إذا كانت الفلسفة التقليدية قد بدأت بالأشياء المحسوسة وإذا كان ديكارت قد بدأ بالنفس وجعلها اليقين الأول في نسقه الفلسفي فإن اسبينوزا قد بدأ من الله، ولما استخلص ديكارت عناصر فلسفته من فكرة الذات كذلك استخلص اسبينوزا فلسفته كلها من فكرة الله وهكذا اعتقد سبينوزا أن كل شيء يلزم عن طبيعة الله بالضرورة.[2]

يميز اسبينوزا بين ثلاثة أنواع من المعرفة، وهي الظن (أو الخيال) و العقل، والحدس، ويضع تحت الظن الملاحظات العادية للحواس التي تعطى في التجربة، وتلك ينقصها الدقة العلمية، وتكون مشتتة ومختلطة.

ويضع تحته أيضا[3] المعرفة عن طريق السماع والعرف، وذكريات التجارب الماضية التي لا تصنف عن طريق العقل ولا تفهم عن طريقه، و يبدو أن هذه المعرفة ليست معرفة دقيقة، وبعد أن نقرأ ونسمع كلمات معينة أو رموزا، نتذكر أشياء بصورة أكبر، وأقل دقة، و تكون أفكارا عنها، ومن ثم عندما يسمع المرء أو يقرأ كلمة (تفاحة) يكون لديه صورة ذهنية عن الفاكهة، وعندما يرى الجندي آثار أقدام الحصان في الرمل، يكون صورة ذهنية عن الفارس، ثم يكون بعد ذلك صورة عن الحرب، في حين أن الريفي يكون إدراكا عن حصان ينتقل في خياله إلى أفكار الحرث، والحقل، ويدرج اسبينوزا بالتالي، تحت الظن الإدراكات الحسية، والصور التي يثيرها تداعي الأفكار، والذكريات والكلمات، والرموز والمعرفة التي تنتقل عن طريق التقليد أو التراث وكما كان اسبينوزا فيلسوفا عقليا، فإنه يجد أن هذه المعرفة لا يمكن الركون إليها، ومن المحتمل أن تكون

---

[1] جماعة من الأساتذة السوفيات، موجز تاريخ الفلسفة، ت.د، توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص: 174.

[2] نفس المرجع السابق، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت ص: 198.

[3] وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ت: محمود سيد أحمد مراجعة، إمام عبد الفتاح إمام التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص: 115.

خاطئة ويثق اسبينوزا ثقة مطلقة في العقل والحدس، أما العقل فهو مكمن لأن لدينا أفكارا مشتركة مع جميع البشر، لأن أجسامنا وعقولهم، و أجسامهم لها نفس الخصائص وكذلك تستطيع أن تحصل على معرفة كافية عن أفكار لعلل الأشياء من معلوماتها ونبرهن على القضايا عن طريق مناهج الهندسة، ونستنتج النتائج من مقدمات القياس.[1]

قد يبدوا مستحيلا على عقل الإنسان المحدود الإحاطة بالكل اللامحدود، إلا أن الأمر يبدوا كذلك فقط بالنسبة إلى من يزيغ عن الطريق السوي للتفلسف كالمدرسيين أو ديكارت. فالمدرسيون ينطلقون لمعرفة الأشياء المحسوسة ويرتقون إلى معرفة الله، وهم بهذه الصورة يقلبون نظام الوجود ويعكسون ترتيب الأمور ويسيئون بالتفلسف، مما يسوء بهم إلى الوقوع في التناقض فلا يخرجون من جهلهم لطبيعة الله والأشياء.[2] وأما ديكارت، فلقد تجاوز المذاهب المدرسية بنقده لمعرفة الحسية وباعتبار الإلاه والنفس جوهرين عقليين يدركان بالعقل بصورة قبلية، إلا أنه تعذر عليه، نظارا إلى منلطقهم المثالي، الخروج من الذاتية وفم الوجود. إن الفصل الذي أقامته فلسفة الكوجيتو بين عقلنا البشري والعقل الإلاهي لم يساعدها على إدراك الوجود، وحكم على العقل البشري بالركود النهائي في حدود ضيقة لا تناسب طموحه الأصلي[3].

نفهم من هذا أن نظام الوجود حسب رأي سبينوزا يجب أن يبدأ من معرفة أو إدراك الذات الإنسانية بالذات الإلاهية وذلك أن المعرفة ينبغي أن تتوجه أولا إلى الله ثم باقي الموجودات أو العالم الحسي.

[1] المرجع الشابق، ويليام كلي رايت، ص: 116.

[2] باروخ سبينوزا، رسالة في إصلاح العقل، تر: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، 1990، ص:19.

[3] المصدر نفسه، ص:20.

ثانيا: مذهبه ونسقه الفلسفي:

مذهب سبينوزا:

مذهب* سبينوزا «الميتافيزيقي هو من النمط الذي افتتحه بارمنيدس»، فثمة جوهر واحد فقط، (الله أو الطبيعة)، وليس ثمة شيء متناه موجود بذاته، وقد سلم (ديكارت) بثلاثة جواهر، الله والذهن و المادة، والحق أنه حتى عند (ديكارت) كان الله أشد جوهرية من الذهن والمادة، ومادام هو الذي خلقهما، وفي وسعه لو شاء أن يعدمها.

ولكن باستثناء ما يتعلق بما لله من قدرة عليا، فالذهن والمادة جوهران مستقلان، يعرفان على التوالي بصفتي الفكر والامتداد** و لن يكون لدى اسبينوزا شيء من هذا، فعنده أن الفكر والامتداد معا من صفات الله، ولدى الله كذلك عدد لا متناه من الصفات الأخرى مادام يلزم له في كل حالة أن يكون لا متناهيا، ولكن هذه الصفات الأخرى مجهولة لنا، والنفوس الفردية والأجزاء المنفصلة للمادة، هي عند سبينوزا نعتيه، فهي ليست أشياء، بل محض مظاهر للكائن الإلهي، ولا يمكن أن يكون هناك شيء من قبيل الخلود الشخصي كما يعتقد المسيحيون ولكن فقط ذلك النوع اللاشخصي، الذي يتمثل في أن يغدو شيئا فشيئا واحدا مع الله، والأشياء المتناهية تتعرف بحدودها، المادية أو المنطقية، أي بما ليس فيه: «فكل تحديد هو نفي» ولا يمكن أن يكون هنالك إلا كائن واحد يكون ايجابيا على التمام، ويجب أن يكون لا متناهيا على الإطلاق ومن ثم إنقاذ سبينوزا إلى حلول تام ومطلق[1] في العالم المادي، فكل شيء يحدث فهو يحل لطبيعة الله التي لا يمكن فهمها، ومن المستحيل منطقيا أن تكون الأحداث غير ما هي عليه.

ويؤدي هذا إلى صعوبات بصدد الخطيئة، لم يبطئ النقاد في التنبيه إليها، فواحد منهم، بعد أن لاحظ أن كل شيء، تبعا لسبينوزا، قد قضى به الله وأنه من ثم خير، يتساءل مستنكرا: هل

* مذهب: مجموعة من الآراء والنظريات الفلسفية، ارتبطت بعضها ببعض ارتباطا منطقيا.

** الامتداد: جزء من المكان وهو متناه، أما المكان فغير متناه.

[1] برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ت.د محمد فتحي الشنيطي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م، ص: 123.

كان خيرا أن يقتل (نيرون) أمه؟ وهل كان خيرا أن يأكل آدم التفاحة؟ ويجيب (سبينوزا) بأن ما كان إيجابيا في تلك الأفعال فهو خير وفقط ما كان سلبيا فهو شر، ولكن السلب يوجد فقط من جهة نظر المخلوقات المتناهية، وفي الله وهو وحده الحقيقي على التمام، ليس ثمة سلب، وقد عرضت (الأخلاق) بأسلوب (أقليس) بتعريفات وبديهيات، ونظريات، وكل شيء بعد البديهيات تفترض البرهنة عليه بصرامة بحجة استنباطية* وهذا يجعل قراءته صعبة، ولكن قد يظهر افتقارا في الفهم أن نلوم (سبينوزا) على منهجه الهندسي[1] لقد كان من لب مذهبه من الناحية الأخلاقية ومن الناحية الميتافيزيقية سواء بسواء، الأخذ بأن كل شيء يمكن البرهنة عليه، ومن ثم كان إنتاج البراهين شيئا جوهريا، ونحن لا نستطيع أن نتقبل منهجه لأننا لا نستطيع أن نتقبل ميتافيزيقاه ونحن لا نستطيع أن نعتقد بأن ارتباطات أجزاء العالم بعضها بالبعض الآخر ارتباطات منطقية، ولكن عند (سبينوزا) المنهج الهندسي منهج ضروري، ومرتبط بأشد أجزاء نظريته جوهرية.[2]

إن اسبينوزا كان أول من وضع لبنة المثالية الموضوعية في الفلسفة الحديثة، فاسبينوزا أول من قال بالجوهر الواحد الذي يتجسد في المادة والروح، و تعد الطبيعة مظهرا خارجيا له، والأفكار والحالات العقلية مظهرا باطنيا له، أي يوجد في الخارج والداخل، وبذلك يقرأ (رويس) (اسبينوزا) من خلال مذهبه الذي يعرصه في الجزء الثاني من الكتاب، فنحن أجزاء من مطلق اسبينوزا أو جوهره، فهو جوهر يضمنا ونحيا فيه، يرى رويس أن إيمان (اسبينوزا) إيمان صوفي يقوم على التأمل، ويختلف عن الإيمان التقليدي، إيمان العقائد الجاهزة أو المفروضة التي تتطلب من الإنسان الإيمان[3] بها، واعتبر رويس أن هذا الإيمان نتيجة للطرد والحرمان الذي عانى منه اسبينوزا ولحياة العزلة التي فرضت عليه.

---

* حجة استنباطية: الاستدلال على صدق الدعوى أو كذبها وهي مرادفة للدليل.

[1] المرجع السابق، برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص: 124.

[2] المرجع نفسه، ص: 125.

[3] جوزايا رويس، روح الفلسفة الحديثة، ت أحمد الأنصاري، مراجعة: حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003م، ص: 11.

لم يجعل (رويس) إيمان (سبينوزا) نابعا من فقده السلطة الدينية ورفضه سلطة اللاهوت أو من نقده وتحليله للعهد الجديد أو إلى أن إيمانه كان نتيجة لتطبيق المنهج الديكارتي تطبيقا جذريا في المجالات التي استبعدها ديكارت من منهجه، خاصة مجال الدين والسياسة أو على الكتب المقدسة والكنيسة والتاريخ المقدس، يقول اسبينوزا في الرسالة عقدت العزم على أن أعيد من جديد فحص الكتاب المقدس، بلا إيحاء وبحرية ذهنية كاملة، وألا أثبت شيئا عن تعاليمه أو أقبله ما لم أتمكن من استخلاصه بوضوح تام.[1]

سبينوزا يذهب إلى ما هو أبعد من أن العلل تحتم معلوماتها إنه ينكر أن يشتمل الكون على أية حوادث عارضة (غير ضرورية) مهما كانت، «ليس في الكون شيء عارض، ولكن كل الأشياء مشروطة بأن توجد وتعمل على نحو خاص بضرورة الطبيعة الإلاهية» وهذا ينجم بالضرورة عن واحدية سبينوزا لأن كل ما يوجد إنما هو مظهر للجوهر الواحد الذي هو الله، وبما أن ذلك الجوهر ذاتي العلة وحر الإرادة* بالضرورة فإن كل صفاته يجب أن تنشأ من جوهره أو طبيعته، ومن ثم «فكل الأشياء مشروطة بضرورة الطبيعة الإلاهية لا توجد فقط بل كذلك لتوجد وتعمل بطريقة خاصة، وليس هناك شيء عارض».[2]

إن الصلة بواحدية سبينوزا بادية هنا من جديد، فكل الحوادث سواء وصفناها بأنها عقلية أم مادية، هي مجرد مظاهر لكلية واحدة محددة تحديدا شاملا، وبرغم هذه الحتمية الشاملة حاول اسبينوزا أن يظهر أن بعض الكائنات البشرية على الأقل لها مقدار من الحرية الفردية، ويقول اسبينوزا أن كل فرد لديه مبدأ داخلي أو قدرة على البقاء، أي ما يدعوه اسبينوزا القدرة أو المحاولة التي يسعى بها كل شيء أن يستمر في وجوده وبتعبيرنا عن طبائعنا ومقاومتنا القوى الخارجية

[1] المرجع السابق، جوزايا رويس، ص: 12.

* حر الإرادة: يقال عن شيء أنه حر عندما يوجد بضرورة طبيعته وحدها ويحدد فعله بذاته وحدها.

[2] جون كوتنغهام، العقلانية، ت: محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1997م، ط1، ص: 68.

نستطيع أن نصبح أحرارا، وهذا التعبير الذاتي يشمل عند اسبينوزا عملية التنظيم العقلي التي يمكن بها، من خلال ممارسة العقل أن توجه عواطفنا ونسيطر عليها وأن نعثر على ذواتنا الحقيقية.[1]

نسق اسبينوزا الفلسفي:

يقال أن عددا قليلا من فلاسفة العصر الحديث هم الذين قاموا بأداء أعمالهم بدقة بالغة ونظام لا يحيد ولأن اسبينوزا قد عاش حياة منعزلة منبوذا من أقاربه وأصدقاء شبابه كان عليه أن يشعر باليأس، إلا أن الأمور سارت على عكس ذلك تماما.

وبسبب ظروف حياته الأسرية والاجتماعية من حوله كرس اسبينوزا حياته للفلسفة لأنه شعر بحاجته لخير أسمى يعيش من أجله وسعادة قصوى يسعى إليها يمنحانه الشعور بالرضا النفسي والعقلي معا، مستقلا في ذلك عن العالم الخارجي، ومبتعدا عن ظروفه المحيطة به.

وقد قال اسبينوزا في ذلك:

«وهكذا فقد شعرت أنني أعيش في حالة خطيرة، فأجبرت نفسي على أن أبحث بكل قوتي عن علاج لداء الخطر هذا، وعلى الرغم من أن هذا قد يكون غير مؤكدا، ولكنني كرجل مريض قررت أن أكافح هذا المرض الخطير، لأنني رأيت أن الموت آت لا ريب فيه، فكان لابد من توافر العلاج، وفي هذا العلاج إنما يكمن الأمل في الحياة».[2]

ولأن ديكارت الذي كان معاصرا لسبينوزا ويعيش أيضا في أمستردام بهولندا، قد ذهب إلى القول بوجود جوهرين متباينين هما:

- الجوهر المادي.
- الجوهر العقلي.

[1] جون كوتنغهام، المرجع السابق، ص: 69.

[2] نفس المرجع السابق، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص: 193.

والجوهر العقلي بدوره إما أن يكون متناهيا، كما هو الحال في الجوهر المـــادي، وهـــو العقل أو النفس الإنسانية، وإما أن يكون غير متناه وهو الله تعالى.

«ولكن سبينوزا كان يترع نزعة توحدية جعلته لا يعترف إلا بجوهر واحد فقط، فإذا كان ديكارت قد قال بصفة الفكر للعقل أو الذهن، وبصفة». «الامتداد المادة أو الجوهر المـــادي فإن سبينوزا يجعل هاتين الصفتين معا من صفات هذا الجوهر الواحد الذي يقول به، وهذا المذهب الذي ذهب إليه سبينوزا قد ذهب إليه من قبل بارمنيدس (540 ق م) يســـمى مـــذهب وحـــدة الوجود، وقال به بعد ذلك برونوا واسبينوزا وابن عربي وابن سبعين والحلاج وغيرهم.[1]

وقد يسمى البانتيئية بنفس التسمية وحدة الوجود التي تتكون من مقطعـــين يونـــانيين (pan) .بمعنى كل، و (theos) .بمعنى إله».

وخلاصة مذهب وحدة الوجود أن الله هو العـــالم، وجســـمه النجـــوم والكواكـــب والأشجار والأزهار والمحيطات والجبال والسحب، وعقله الروح التي تشكلها وتلونهـــا وتحركهـــا وتحملها، وكل عقل بشري جزء من عقل الله، وتعرف هذه العقيدة الفلسفية بوحدة الوجود.

فالعالم لدى سبينوزا لا نهائي، ليس له بدء في المكان وهو خالد لا بداية له ولا نهاية في الزمان لأن لا شيئية لا تعقل في الزمان ، كما لا تعقل في المكان، كما أن الأرض والكواكب وكل المجموعة السابعة من الشموس والنجوم، إلا بضع ذرات رملية تجمعنا في ركن صغير مغمور من هنا العالم الخالد اللانهائي، وهذا هو (جوهر العالم) ويعني اسبينوزا بالجوهر الروح، الكيان، الوجـــود فالجسم والعقل والروح أن هي إلا مظاهر ثلاثة لحقيقة واحدة العالم المرئـــي وهـــو جســـم الله، والفكرة التي تتأمله وهي عقله، والطاقة التي تحركه هي روحه.

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، المرجع السابق، ص: 194.

إن وحدة الوجود ترى أن كل جسم بشرى هو جزء من جسم الله، وكل فكرة بشرية هي جزء من عقل الله، ولكن العالم لا يحكم وفق رغباتنا الفردية، بل وفق مشيئة إله التي شملت كل شيء، ووسعت كل شيء علما.

إذن فكل شيء تبعا لهذا المذهب هو شيء مقدس، وأن الله والطبيعة متطابقان، وقد ظهر هذا المذهب أول ما ظهر في التعبيرات الشعرية قبل أن يظهر في المذاهب والأدلة الفلسفية، وكذلك ذهب اسبينوزا الذي توصل في نهاية مذهبه الفلسفي إلى وجود جوهر واحد لا نهائي.[1]

قال اسبينوزا:

«سأكتب عن الكائنات البشرية، وكأنني أكتب عن الخطوط والسطوح والأجسام الجامدة، وقد حرصت على أن لا أسخر أو ألعن أو أكره الأعمال البشرية بل أفهمها، ولذلك نظرت إلى العواطف ... باعتبار كونها رذائل وشرور في الطبيعة البشرية ولكن بوصفها خواص لازمة لها كتلازم الحرارة والبرودة والعواصف والرعد وما شابهها لطبيعة الجو».

«على الرغم من أنني أجد أحيانا بطلان النتائج التي جمعتها بعقلي وتفكيري الطبيعي ولكن بهذا لن يزيدني إلا إقناعا، لأنني سعيد في التفكير وجمع المعلومات ولا أضيع أوقاتي في التحسر والحزن، بل أنفقها في السلام والصفاء والسرور».[2]

يقول اسبينوزا أن الإنسان يحقق أعلى القيم الأخلاقية من خلال الفهم العقلاني للطبيعة، فبذلك الفهم يدرك الإنسان مكانه في الكون أو الطبيعة ويدرك محدوديته وأن لا حياة أمامه غير الحياة التي يحيا فيؤدي ذلك إلى تبنيه قيما وفصائل تجعله منسجما مع الطبيعة، ومما يقتضيه الانسجام مع الطبيعة إدراك الإنسان أنه محكوم بقوانين حتمية* تسيره ولا حيلة له أمامها إلا

[1] نفس المرجع السابق، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص: 195.

[2] عبد القادر تومي، أعلام الفلسفة الغربية في العصر الحديث، المؤسسة كنوز للنشر والتوزيع، ط1، 1432هـ-2011م، ص: 86..ما سيحدث من الأمراض عن طريق العلم بأسبابها.

* حتمية: هي المبدأ القائل بخضوع الأشياء لمبدأ العلنية، وللقوانين الضرورية وهذه الحتمية يتنبأ الطبيب.

الاعتماد على العقل الذب يجعله مدركا أو فاهما لتلك القوانين ساعيا بإدراكه أو فهمه إلى تحقيق كل ما يمكن تحقيقه من انسجام مع ما حوله، فإن كان ثمة حرية متيسرة للإنسان فإنها لا تتأتى إلا من خلال تلك العقلانية المدركة بموقعها في الطبيعة أو في نظام الكون.[1]

[1] سعد البازعي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007م، ص: 139.

الفصل الثاني

مصادر وحدة الوجود

المبحث الأول: التأصيل لوحدة الوجود:

أولا: وحدة الوجود في الفلسفة الهندية (برهما):

نستخلص من هذا الفكر الهندي أنه مر بمراحل فبدأ القول: أولا القول بالتعدد على نحو ما وجد في كثير من الثقافات القديمة والتي تجعل لكل شيء في الطبيعة إلها ابتداء من الظواهر الطبيعية وانتهاء بالمادة الجامدة وعلى هذا قامت (الفيديه) وهي الشكل القديم للهندوسية وقد دخلت إلى الهند مع الأوربيين حوالي سنة 1500 قبل المسيح، إن كتب الدرسين المقدسة تدعى (فيدا) المعرفة المقدسة، وهي تتضمن أناشيد للآلهة ونصوص لتقديم الذبائح وتعرفنا عالم الثقافة والتصورات عن الله، وصور الإنسان أشكال العبادة في زمن الفيدا.

ثم انتهى هذا الفكر إلى القول بالتوحيد وهو توحيد عقلي جمع الآلهة في إله واحد صدر عنه الكون كله أو انبثق منه الكون كله على نحو ما نجده لدى الأفلاطونية* المحدثة.

هذا الإله يسمى (برهما) هو الألوهية المطلقة الحقيقية المتسامية والكائن الأعلى وهو أيضا خلاصة الكون، ولأن براهمن هو جوهر الألوهة، فهو يمتلك كل الصفات .

ومن صفات البرهماء هو الأزلي المطلق، والمتسامي الذي يستحيل التعبير عنه لأنه لا يمكن أن يحدد بصفات أو مصطلحات ولا يمكن الوصول إليه إلا بممارسة التأمل والاستغراق.

كما هو أيضا المصدر الأخير لكل الأشياء وكل الكائنات الحية، إنه يلج في داخلها كلها ويحركها ويحييها، والبراهمن هو الذي يخرج من كيانه كل شيء وهو الجوهر الأصلي لكل الأشياء

* الأفلاطونية المحدثة، هي القسمية التي أطلق منذ القرن التاسع عشر على مدرسة الصوفية الفلسفية والتي تكونت في القرن الثالث مبنية على تعاليم أفلاطون وتابعية الأوائل ويعد أفلاطون وأستاذه أمونيوس سكاس من المساهمين الأوائل في هذه الفلسفة.

وغاية كل الكائنات، كما هو غاية البحث الروحي والمعرفة الحسية والنقطة العضوي للاتحاد الروحي.[1]

براهمن بالنسبة لمذاهب الهندوسية هو المتسامي الذي يمكن تجاوزه وهذا يعني أن الآلهة الشخصية ولأسياد العالم لا يعد سوى أشكال شخصية لبراهمن أنهم دفق من كيانه وهم بذلك أشكال كيان منحطة من شاميه الإلهي فيهم ترتبط الألوهية المطلقة بالكون وبعالم الإنسان وهو درجة متوسطة بين البرهماء والعالم الذي به يرتبطون وبالتالي يحددون، صحيح أن لهم قسط من التسامي ولكن هذا التسامي نسبي، إن لهم حقيقة خاصة ولكنها تصلح فقط بالنسبة إلى الكون والبشر لا لا بالنسبة إلى البراهمن المتسامي المطلق، الواحد الأصلي الذي هم أشكال ظهوره.

براهمن نفسه هو على قدر كبير من التسامي وهو في ذاته الحقيقة الكاملة بحيث لا يقبل أن يكون ثمة حقيقة أخرى مطلقة خارجا عنه براهمن هذه الألوهة غير الشخصية، هو الألوهة الحقيقية هو وحده الواحد المطلق، الذي لا صفة له، الذي لا يمكن تحديده، الذي يتجاوز كل كثرة وكل نتائجه إنه يستحيل تصوره أو التعبير عنه، إنه المتعالي المطلق عن هذا الدهر، والسر الذي يفوق كل واقع في هذا العالم وهو محتجب فوق العالم والإنسان والألوهية وذلك براهمن المتسامي المطلق، هو من خلال انبثاقه، حاضر في كل الكائنات بحيث لا تحصل أي منها على حقيقة إلا من خلال حقيقة الأشياء والكائنات ليست لها حقيقة خاصة بها، فهي تصدر عنه وتقيم فيه، وهذه وحدة الوجود التامة (الألوهية في الوجود كله) والأمر هو على هذا النحو بحيث أن البراهمن هو وحدة الموجود وهو موجود في كل الكائنات وهذا يعني أنه الله وحده كل شيء.[2]

ونظرا لأن الموجود على الحقيقة هو الإله، لذلك فالموجودات المدركة بالحس ليست إلا صورا وأوهاما، أو هي بمعنى آخر مجرد مظاهر لبرهما، الذي هو الحقيقة دون سواها، واستقصاء بقية نحلهم نجدها صورة من صور وحدة الوجود.

---

[1] عادل تيودور خوري، مدخل إلى الأديان الخمسة الكبرى، مكتبة البوليس 2005م، جوذية، لبنان، سلسلة يشرف عليها عادل خيود ورخوري والمطران، سليم بتراس، ص: 01.

[2] نفس السلسلة، ليتودوري خوري، مدخل إلى الأديان الخمسة الكبرى، ص: 02.

كما يرى الهنود أن البراهمة في الله سبحانه فهو الواحد الأزل* من غير ابتداء ولا انتهاء المختار في فعله القادر الحكيم، الحي – المحي، الفرد في ملكوته من الأضداد والأنداد ولا يشبه شيء، كما يرى البراهمة أن عناية الله ورعايته لخلقه شاملة، وليست مقصورة على بيئة دون أخرى بل تعم كل الفئات والطبقات.

فوحدانية البراهمة تنتهي إلى شيء غريب من وحدانية الوجود وما يؤكد ذلك أنه ينقل عن خاضعهم ذلك بقوله «أنهم يذهبون في الموجود إلى أنه شيء واحد على مثل ما تقدم» فإن «باسديو» يقول في كتابه (كينا) «أما عند التحقيق فجميع الأشياء إلهية لأن (شيء) جعل نفسه أرضا ليستقر الحيوان عليها وجعله ماء ليعفيهم، وجعله نار وريحا لينميهم وينشأهم » وأما أشبه قول صاحب الكتاب (بلييناس) في علل الأشياء بهذا كأنه مأخوذ منه أن في الناس كلهم قوة إلهية بها تعقل الأشياء بذاتها، بالذات بغير ذات.[1]

ثانيا: وحدة الوجود الفلسفة اليونانية عند بارمنيدس:

والحقيقة الأولى هي «أن الوجود موجود ولا يمكن ألا يكون موجودا» أما اللاوجود «فلا يدرك إذ أنه مستحيل لا يتحقق أبدا ولا يعبر عنه بالقول فلم يبق غير الريق واحد هو أن نضع الوجود وأن تقول أنه موجود» و« الفكر القائم على الوجود ولولا الوجود لما وجد الفكر لأن شيئا لا يوجد ولن يوجد ما خلا الوجود» ولما كان الوجود* موجودا فهو قديم بالضرورة لأنه يمتنع أن يحدث من اللاوجود ويمتنع أن يرجح حدوثه مرجح في وقت دون آخر[2] فليس للوجود ماض ولا مستقبل ولكنه في حاضر لا يزول وعلى ذلك «يمتنع الكون ولا يتصور الفساد» وينفي التغير، والوجود والواحد متكافئان فيلزم أن الوجود واحد فقط متجانس «مملوء كله وجودا» ويلزم أنه تابت ماكن في حدود «مقيم كله في نفسه» إذ ليس خارج الوجود ما منه وما إليه يسير

* الأزل: الوجود عينه، بوصفه يتصور لازما بالضرورة عن مجرد تعريف شيء من الأشياء الأزلية.

[1] د بركات محمد مراد، البيروني فيلسوفا، ط1، 1988م، الصدر لخدمات الطباعة، ص: 49.

* الوجود: قابل العدم، وهو بديهي، فلا يحتاج إلى تعريف إلا من حيث أنه مدلول للفظ عن آخر.

[2] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355-1636، ص: 37.

وهو كامل متناه أي معين «لا ينقصه شيء» إذ ليس خارج الوجود وجود يكتب، وهو تام التناهي والتعيين في جميع جهاته إذ لا يمكن أن يكون بعضه أقوى أو أضعف من بعض مثله مثل كرة تامة الاستدارة متوازنة في جميع نقطها وبالجملة لما اقتنع بارمنيدس بأن العالم واحد رأى أن ما يطلق عليه بهذا الاعتبار هو أنه وجود، وتأمل معنى الوجود موجودا ومفرعا من كل مفهوم سوى هذا المفهوم البسيط الهزيل الذي يعني الوجود بالإطلاق فأدراك أن الوجود واحد قديم ثابت كامل وأن هذه الصفات لازمة من معنى الوجود فأثر هذا اليقين العقلي وأنكر الكثرة والتغير واعتبارهما «وهما» وظنا أليس التغير يعني أن الوجود كان موجود ولم يكن موجودا (ما صار إليه) وأنه باق في الوجود ومع ذلك فهو ليس موجودا (على ما كان) أو ليست الكثرة تعني أن كل وحدة من وحدها هي كذلك شيء معين، وليست كذا أي ليست غيرها، ولكن قولنا عن شيء أنه ليس كذا معناه أن هذا الشيء حاصل وهذا معنى غير معقول «ولكنه اضطر أن نتبع الظواهر المحسوسة وقال إن الأشياء واحدة في العقل كثيرة في الحس» فانتقل من يقين العقل إلى ظن الحواس ومن الفلسفة إلى العلم الطبيعي يحاول أن يفسر الظواهر وأن يورد ما يبلغ إليه الظن فيها فقبل الوجود واللاوجود في آن واحد وهو يعلم أن هذا الطريق معارض للعقل ولكنه يعلم أيضا أنه أهون عند العقل من طريق الذين يعتقدون «أن الوجود واللاوجود شيء واحد، ثم إنهما ليس شيئا واحد» ويريد فيما يلوح معاصره هيروقليطس، فتصور بار منيدس الوجود الكامل غير منقسم، كرة ماديه كما تصور الفيثاغورين العدد ممتد وشرع يسرد أراء تذكر بقصص هزيود وأقول أنكسندريس وإنكمانس، ومهما يكن من هذه المسألة ومن تشخيص الوجود في كرة مادية تتصل هي مع ذلك واحدة غير منقسمة، فإن ميزة بارمنيدس أنه فيلسوف الوجود المحض تجاوز عالم الظواهر وعالم الأعداد والأشكال، وبلغ إلى الموضوع الأول العقل وهو الوجود، ولقد بهره معنى الوجود فلم يعد يرى غير أمر واحد هو «أن ما هو موجود فهو موجود ولا يمكن ألا يوجد» وأن «الوجود موجود واللاوجود ليس موجود» ولا مخرج من هذه الفكرة أبدا.[1]

[1] نفس المرجع السابق، يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص: 39.

ثالثا: وحدة الوجود في الفلسفة الإسلامية (ابن عربي أنموذجا):

إن الفكرة المركزية في مذهب ابن عربي هي مقولة وحدة الوجود التي تنطوي بشكل إضماري على الوصال والاتصال بين جميع أجزاء الكون بحيث يرى الشيخ الأكبر أو كما يطلق عليه في الصوفية (الكبريت الأحمر، الطاغوت الأكبر) هذا فنرى لصوفيه ربا عجيبا يجمع بين النقيضين المتوترين في ذاته وبين الضدين الحقيقيين في صفاته، فهو الوجود الحق وهو العدم الصرف، وهو الحلاق وهو عين كل كائن وصفاته عين كل موجود وكل معدوم وهو الحق الكريم والباطل اللئيم هو الفكرة العبقرية والخرافة الحمقاء، هو الخاطرة الملهمة والوهم الذاهل والخيال الحيران والمستحيل الذي لا يتصور فيه العقل أبدا أن يخطر حتى مرة واحدة في بال الإمكان والممكن الذي يرى فيه الفكر أجلى معاني الإمكان والذي لا يتوهم فيه العقل وهم استحالة هو المؤمن هو الكافر، هو الموحد الخالص التوحيد وهو المشرك الأهم، هو الجماد الغليظ، هو الحيوان ذو المشاعر المرهفة والحساسة المستوقدة، هو الملاك الساجد تحت العرش، وهو الشيطان الذي يصطرخ في سقر وهو القديس الناسك يذوب قلبه في دموع التسابيح وهو الحر يبدأ بصح المأخوذ من بني خطاياه هو الراهبة التي تحب على محبه الله وتقواه وهو العافية التي تحيا للجسد المبذول هو النور يغمر الوجود بما فيه وهو الظلام مرارا الكهوف بالفزع والرهبة تلك هي بعض ذاتيات رب ابن عربي وبعض خصائص الإله الصوفي.[1]

ولهذا يؤمن ابن عربي بأن اليهود عباد العجل ناجون، بل يؤمن بأنهم كانوا على علم بحقيقة الألوهية، كم ينعم موسى ولا هارون بلمحه من تجلياته ولا يبارقه من الكشف الأسرار الإلهية المغيب له لأنهم ما قصروا العبادة على فكرة مجرد خاوية كموسى، وإنما عبدوا الرب متجليا في صورة العجل، فأدركوا من حقيقة الأمر ما لم يدركه هارون، هو أن الذات الإلهية لا تعبد إلا حين تتجلى في صورة خلفية !!.

[1] عبد الرحمان الوكيل، هذه هي الصوفية، ط4، 1974م، دار الكتب العلمية، ص: 33.

ويؤمن ابن عربي بقدسية عبده الأصنام، ويمجد صدق إيمانهم وإخلاص توحيدهم، يؤمن الصائبة عبادا يوحدون الله، ومخلصون له الدين، يؤمن بسمو إيمان الذين عبدوا ثلاثة آلهة غير أنه يعيب عليهم قصورهم عن إدراك الحقيقة الكاملة، إذ عبدوا الله في ثلاثة أقانيم على حين كان الواجب أن يعبدوه في كل شيء فليس الرب عنده هو تلك الأقانيم فحسب، وإنما هو عين ما يرى وما يحس وعين ما لا يرى ولا يحس، فأصحاب الثالوت عنده مخطئون لأنهم عبدوا بعض مظاهر الرب، أو بعض تعيناته وكان واجبا أن يعبدوه في الكل لأنه هو ذلك الكل فيما ظهر منه، وفيما بطن !!.[1]

ربوبية كل شيء:

واسمع إليه يؤكد لك أن كل شيء هو الله سبحانه «سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها» «إن العارف من يرى الحق الله، في كل شيء، بل يراه عين كل شيء» وكلمة شيء: في دين الطاغوت تطلق حتى على الصور الذهنية والوهمية وعلى العدميات، فوق إطلاقها على كل موجود له كيانه المادي المستقل المقوم بذاتياته وخصائصه، فإن ابن عربي كما ترى صرح الدعاة إلى وحدة الوجود بل هو كاهنها الأكبر !!.[2]

الرب إنسان كبير:

واسمع إليه يحكم على ربه بأنه يجيب أن يوصف بما يوصف به الخلق، حتى كما فيهم من نقص وعجز وحمق وجهالة، ويحد بما تحد به كل كائن على حده.

« فما يحدثني إلا هو حد الحق، فهو الساري في سمى المخلوقات والمبدعات فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته وهو روح العالم المدبر له، فهو الإنسان الكبير».

كما يؤكد ابن عربي على أن ربه هو كل ما ترى من صدور العالم « هي الظاهر الحق إذ هو الظاهر، وهو باطنها، إذ هو الباطن، وهو الأول إذ كان ولا هي وهو الآخر إذ كان

[1] نفس المرجع السابق، عبد الرحمان الوكيل، هذه هي الصوفية، ص: 35.

[2] المرجع نفسه ، ص: 36.

عينها عند ظـــهورها» وتدبر تعريف ابن عربي لربه بقوله: « هو عين ما ظهر وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يبطن أنه، فهو ظاهر لنفسه، باطن عنه وهو المسمى أبا سعيد الجزار» وغير ذلك من أسماء المرئيات، والعارف الحق بالله عند ابن عربي هو من يـــرى «سريان الحق الله في الصور الطبيعية والعنصرية إلا يرى عين الحق فيها».[1]

كما يقول ابن عربي في بيت شعري بحيث يؤكد توجه نحو بناء مذهبهم جميـــع الأديـــان العقائد:

عقد الخلائق في إله عقائد وأنا اعتقد جميع ما اعتقدوا.

ويقول أيضا:

لقد كنت قبل اليوم أفكر صاحبي إذ لم يكن ديني إلي دينه زادني

لقد صار قلبي قابلا بكل صورة فمرعى لغزلان، ودير لرهبان

دين الأوثان، لعبة طائف وألواح نوارة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالدين ديني وإيماني.[2]

كما نجد ابن عربي من خلال مذهبه يحذر أتباعه من أن يؤمنوا بدين خاص ويكفروا بمـــا سواه فيقول:

«فإياك التقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بـــالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولي، لصور المعتقدات كلها فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصر عقد دون عقد فالكل مصيب وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد وكل سعيد مرضى عنه».

[1] نفس المرجع السابق، عبد الرحمان الوكيل، هذه هي الصوفية، ص: 36.

[2] محمد إبراهيم الفيومي، الشيخ الأكبر ابن عربي، صاحب الفتوحات الملين، دار المصرية اللبنانية، ص: 81.

وبالتالي نجد ابن عربي من خلال هذا حتما ينفي عذاب الآخرة لأن رب الصوفية في دينـــهم كل مشرك وكل موحد ويستحيل أن يعذب الرب نفسه[1]، ولهذا يقول وجاء استعمال ابن عـــربي لهيولي بمعنى القابل، أي الذي تتطلع فيه كل صور المعتقدات كلها، وينفعل بها، وتصدر عنه أفعاله طبقا لمعتقداته المتنوعة فيقول:

فلم يبق إلا صادق الوعدة وحده وما الوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشفاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين

ويسمى عذاب من عذوبة طعمه وذلك كالقشر والقشر صائن.

فيرى ابن عربي أن الوعد عين الوعيد، وأن نعيم الجنة وكوثرها عين عذاب صغير وعليها.[2]

[1] المرجع السابق، ، عبد الرحمان الوكيل، هذه هي الصوفية، ص: 94-95.

[2] المرجع نفسه، ص: 95.

المبحث الثاني: خلاصة مذهب وحدة الوجود عند االسبينوزا:

أولا: أدلة إثبات وجود الله:

البرهان الأول:

إذا كانت ماهية الله تتضمن وجوده فإن الله ينبغي أن يكون موجودا بالضرورة لأن الله هو الوجود أو الواقع كله و عليه فالقول بأن الله غير موجود خلق، فالله إذن موجود وهو نفس الدليل الأنطولوجي عند ديكارت، الذي يجعل وجود الله مشتق من كونه جوهرا لا متناهيا* مستندا في ذلك على قاعدتي الوضوح والتمايز الذي يقوم عليها اليقين الديكارتي.

البرهان الثاني:

يستند اسبينوزا في هذا البرهان على مبدأ عقلانية الطبيعة أو العلية في الطبيعة القائمة على العقل والضرورة وأن كل شيء موجود وراءه سبب وعدم وجوده أيضا له سبب ولابد من أن يكون هذا السبب إما في طبيعة الشيء ذاته أو خارجه، فإذا لم يوجد إله فإما أن يكون بسبب عدم وجوده شيء في طبيعة الله ذاته وإما أن يكون السبب خارجه، ولكن لا يمكن أن يوجد هذا السبب خارج الله لأن الله لا متناهي ويشمل كل الموجودات.[1]

في الله لأن ماهية الله هي وجوده بالذات، وعليه فليس هناك من يستطيع أن يمنع وجود الله لا في داخل الله ولا خارجه، فالله إذن موجود بالضرورة

البرهان الثالث:

يستند هذا البرهان على المبدأ القائل بأن الشيء أي شيء – يزداد قدرة على الوجود بقدر ما يزداد قوة، لأن القدرة على الوجود قوة وعدم القدرة على الوجود عجز وعليه فإذا وجد

* لا متناهيا: نقيض المتناهي، وهو مالا حد ولا نهاية له، يكون بحسب الكم وبحسب الكيف.

[1] المرجع السابق، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة، ص: 22.

المتناهي** فإن اللامتناهي ينبغي أن يكون موجودا بالضرورة لأن اللامتناهي أقوى من المتناهي بصورة لا متناهية، ولما كانت الذات وهي شيء متناه موجودة لأنني أنفي وجود ذاتي أو أشك في وجودها فإنني أؤكد وجودها ولذلك لزم أن يكون الكائن اللامتناهي موجود بالضرورة إذن فالله من حيث هو كائن لا متناهي واجب الوجود.

البرهان الرابع:

البرهان الرابع هو نفسه البرهان الثالث الذي وضع بصورة قبلية وفحواه أنه إذا كانت القدرة على الوجود قوة فإنه يلزم أنه بقدر ما تزداد الأشياء الواقعية فإنها بذلك القدر تزداد قوتها الذاتية على الوجود ويلزم كذلك أن الكائن اللامتناهي المطلق* أي الله له قوة ذاتية لا متناهية مطلقة على الوجود وبناء عليه فالله موجود بالضرورة ونلاحظ أن هذا الدليل يستند إلى وجود شيء متناه في مقابل كائن كامل لا متناه، وإذا كان المرء لا يستطيع أن ينكر وجود ذاته لأنه حين ينكر وجود ذاته فإنه يسلم بوجودها، فالله ينبغي أن يكون موجودا ضرورة.

وبالنظر إلى أقوال اسبينوزا عن الله نجد أن الله كله متناه ولا متناه فهو في الأشياء الفردية (المادية) موجود على نحو متناه ويؤلف ما يسميه اسبينوزا بالأحوال Modes أما في الأشياء الطبيعية أو في الطبيعة ككل فهو لا متناه ويؤلف ما يسميه اسبينوزا بالصفات Attributes والصفة بحسب تعريف اسبينوزا لها هي: ما يدركه العقل في الجوهر على أنه يكون ماهيته، فالصفة إذن هي ماهية الجوهر، وما يكون بها الجوهر.[1]

وبدونها لا يكون ولا يمكن تصوره، إذ أن ما ينتمي إلى ماهية الشيء هو ذلك الذي إذا وجد الشيء أيضا بالضرورة، وإذا غاب الشيء أيضا بالضرورة، أو بعبارة هو ذلك الذي لا يوجد

** المتناهي: هو ما له نهاية ويمكن قياسه وهو المحدود.

* المطلق هو التام أو الكامل المتعري من كل قيد أو حصر أو استثناء.

[1] نفس المرجع السابق، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص: 203.

الشيء ولا يتصور بدونه ولا يوجد هو ذاته ولا يتصور بدون الشيء فالصفة هي الجوهر كما يتبدى للعقل.

ولما كان الله كائنا متناهيا أزليا، فإنه ينبغي أن يحتوي على عدد لا متناه من الصفات** اللامتناهية، لأي أي عدد متناه من الصفات المتناهية لا يمكن أن تستغرق ما هو لا متناهي على أن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك من هذه الصفات اللامتناهية إلا صفتين أساسيتين هما: الامتداد والفكر وهكذا فالله أو الطبيعة من حيث هي كل ما يتبدى للعقل البشري من خلال صفتي الإمتداد والفكر فقط، فالله إذن كائن ممتد ومفكر في وقت واحد، وإذا أردنا الحقة في التعبير قلنا أن الله ليس ممتدا كسائر الأشياء الفردية بل هو الامتداد ذاته أو النظام الكلي للمكان وليس الله فكرة معينة كبقية الأفكار الفردية، بل هو الفكر كله أو النظام الكلي للأفكار.[1]

لم تنتج تلك الأدلة من النقد الذي وجه إلى أدلة ديكارت من قبل ففكرة الموجود الكامل بصورة مطلقة لا تتضمن بالضرورة وجوده أن الفكرة المحض لا يبرهن على وجودها عن طريق واقعة تقول إنها لا تتضمن أي تناقض منطقي وإن كونا مؤلفا من موجودات متناهية يمتد بصورة لا نهائية في الزمان والمكان لا يكون ممكن التصور بدون افتراض وجود موجود لا متناه ولا تمتلك الفكرة المحض –حق ولو كانت فكرة موجود لا متناه– قوة على الإطلاق لكي تخرج نفسها أو أي شيء آخر إلى حيز الوجود.[2]

ثانيا: صفات الله:

يبدأ اسبينوزا بالله بدل الإنسان يعني:

إذا كان تصور الله خاطئا فإن صورة الإنسان لا يمكن أن تكون صحيحة والله بتحديد اسبينوزا هو جوهر هو «مالا يحتاج مفهومه إلى مفهوم شيء آخر يكون مشتقا منه» والجوهر

** الصفات: ما يدركه الذهن في الجوهر مقوما لماهيته.

[1] نفس المرجع السابق، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص: 204.

[2] نفس المرجع السابق، وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص: 118.

يتكون من محمولات وهذا يعني من الصفات التي يعتبرها العقل أساسية وحالات الجوهر هي ما يطلق عليه اسبينوزا اسم (Modi) أما ما هو نهائي فيحدده اسبينوزا بالشيء الذي يحده شيء آخر من الطبيعة نفسها.

أما الله فهو وجود لا نهائي بإطلاق إذ لا مجال أن يحوي في ذاته أي نفي، وهو يقوم بمحمولات كثيرة لا متناهية، يستنتج اسبينوزا من ذلك أن الله واجب الوجود وأنه الجوهر الأوحد وهو بذلك غير قابل للقسمة، أما الأشياء الممتدة والخاضعة للمعرفة فهي بالتالي إما صفات الله أو هي حالات لصفات الله.

إن الطبيعة الطابعة * (الخالقة) ليست متماهية مع الطبيعة المطبوعة** -المخلوقة) ولكن:

«كل ما هو موجود موجود في الله ولا يمكن أن يوجد بدونه، ولا أن يدرك بدونه أيضا».

لقد أجاب اسبينوزا عن السؤال، ما إذا كان يعتبر ذلك حلولا بالشكل التالي:

«إذا كان ثمة أناس يعتقدون أن الله والطبيعة (سواء فهموا ذلك على سبيل الكثرة أو المادة المتجسمة) واحد وهما الشيء نفسه، فإنهم بذلك مخطئون كليا».[1]

إن المساواة (الله) أو [أهنا] الطبيعة «تعني أن الله هو الطبيعة الخالقة [الطابعة] وكل شيء موجود فيه قد أصبح مطبوعا، وهو مدين في وجوده له».

أي أن على كل معرفة أن تحيط بصفات الله أو بأحواله وليس بأي شيء آخر.

يقول اسبينوزا: «إني أتصور الله والطبيعة في صورة تخالف كل المخالفة الصورة التي يرسمها المسيحيون المتأخرون المحدثون عادة، إنني أعتقد أن الله هو السبب الكامن للأشياء كلها ... إني أزعم أن كل شيء كامن في الله، وكل شيء هيا ويتحرك في الله ومن الخطأ الجسيم أن يقول قائل

* الطبيعة الطابعة: هي الجوهر اللامتناهي، وهو الله من جهة ما هو أساس كل شيء.

** الطبيعة المطبوعة: هي مجموع أحوال الجوهر وأعراضه، أي مجموع الكائنات.

[1] بيتر كونزمان، فراتر، بيتر بوركارد، فرانز فيدمان، أكسر فايس، أطلس الفلسفة، ت د جورج كتوره، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط02، 2007م، ص: 109.

أنني أريد أن أبين أن الله والطبيعة شيء واحد ... والقائلون عني بذلك يفهمون من لفظ الطبيعة كتلة[1] معينة من المادة المجسدة – كلا لست أريد أن أقول شيئا كهذا».

كثيرا ما يخطئ الناس في فهم فلسفة اسبينوزا التي توحد بين الله والطبيعة، فيذهب بهم مع الظن أن اسبينوزا يريد بذلك أن يصغر من شأن الله فيترل إلى مرتبة الطبيعة، والواقع كما يقول هو «أنني في حقيقة الأمر لم أهبط بمترلة الإله إلى مستوى الطبيعة، بل رفعت الطبيعة إلى مستوى الله».[2]

كما يرفض اسبينوزا رفضا باتا النظر إلى الله من وجهة نظر بشرية محضة وينكر أن الله شخصا بأي معنى، ويجيب اسبينوزا على رجل اعترض عليه في تصوره الله بصورة مبهمة غير شخصية بقوله: «عندما تقول أنني أنكر بأن يكون لله بصر وسمع وإرادة وما إلى ذلك فإنك لا تعرف أي نوع من الله إلهي، وأظن أنك تعتقد بأن لا إله أعظم كمالا من الله الذي يتصف بالصفات السابقة».[3]

يعني ذلك أن الله بالنسبة لتحليل اسبينوزا هو إله متره لا مجال لتصوره شخصا وهذا يعني أنه يمنحه صفة التعالي عن الواقع البشري وهذا ما يجسد فكرة الطبيعة الطابعة التي منها جاء هذا العالم.

وأخيرا لا العقل والإرادة* ينطبقان على طبيعة الله، ولكن إرادة الله هي مجموع الأسباب كلها والقوانين كلها، وعقل الله هو مجموع العقول كلها.[4]

---

[1] نفس المرجع السابق، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ص: 149.

[2] المرجع نفسه، ص: 150.

[3] ديورانت، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ت فتح الله حمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط06، 1408هـ-1988م، ص: 219.

* الإرادة: هي نزوع النفس وميلها إلى العقل، بحيث يحملها عليه، وهي قوة حركية من شهوة.

[4] نفس المرجع، ول ديورانت، ص: 220.

وهذا يعني أن مفهوم عقل الإنسان وإرادته ليس هو نفسه مفهوم عقل الله وإرادتـــه أي أن عقل الله يحيط بكل شيء أو بالعالم كله أما عقل الإنسان فهو محدود بقدرة إلهية.

«الامتداد صفة لله» هذه واحدة من الدعاوى التي بدت ممجوجة أكثر من سواها لمعاصري اسبينوزا أفليس ذلك معناه افتراض الجسمانية بالله وإسناد الانقسامية والسلبية إليه؟ على أنه لـــيس لنا أن نفهم قول اسبينوزا إلا على ضوء الطبيعيات الديكارتية والتميز الذي تجريه بـــين الامتـــداد كموضوع للفهم و الامتداد كموضوع للخيال «فالامتداد المتخيل هو الذي يتألف مـــن أجـــزاء وينقسم إلى أجسام، هو حاصلها المتناهي، ولكن الامتداد بالإضافة إلى الفهم لا متناه ولا منقسم: وليست الأجسام بأجزاء مركبة له، وإنما هي تحديداته وليس التمايز بين الأجسام تمايزا حقيقيـــا، وإنما هو تمايز في الأحوال» والأحوال هي (تأثرات الجوهر) إن هذه الأجسام في نظـــر الطبيعـــي، أحوال الامتداد، وليست أجزاء من الامتداد، فإن في الصفات كافة، على الرغم من اختلافهـــا في الماهية أساسا واحدا هو قدرتها على تعليل وجود الأحوال فيها* والحال أن هذه المعقولية ليســـت رهنا بطبيعة الصفة، ذلك أن المعقولية هي النظام، والنظام الذي به تنجم الأحوال في كل صفة من هذه الصفات.[1]

لا العقل ولا الإرادة جزء من طبيعة الله بمعناها المعروف، ولكن إرادة الله هـــي مجمـــوع الأسباب كلها والقوانين كلها التي تسير الطبيعة على أساسها، وعقل الله هو مجموع العقول كلها المنبثة في الكون، يقول اسبينوزا «إن عقل الله هو كل القوة العقلية المنبثة في أرجاء المكان والزمان هو الإدراك المنتشر في العالم وهو الذي ينفخ فيه الحياة فكل الأشياء حية بدرجات».[2]

* الأحوال: إحدى كيفيات الموجود أو الجوهر والكيفيات قسمان كيفيات ذاتية ثابتة وكيفيات عرضية متغيرة.

[1] أميل برهييه، تاريخ الفلسفة، القرن السابع عشر، ج4، ت جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنـــان، ط1، ط02، 1984م-1994م، ص: 206.

[2] نفس المرجع السابق، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ص: 154.

ثالثا: وحدة الجوهر:

تتنازل الأطروحة الكبرى الثانية من النقاش مسألة الماورائيات وبشكل أكثر تحديدا وحدة الجوهر والضرورة وقد جرى التعبير عن ذلك عبر وجوه ثلاثة: بايل، مالبرانش، ولا يبنتز، خصص بير بايل في القاموس التاريخي والنقدي مقالة لاسبينوزا، وكانت مقالة يمكن الوصول إليها أكثر مما يمكن الوصول إلى الأعمال التي طبقت بعد وفاة اسبينوزا قدم بايل مدحا لحياة اسبينوزا، نموذج الملحد صاحب القيم إذ مزج بين الطبيعة المطبوعة وبين الطبيعة الطابعة، هكذا بدت الاسبينوزية خليطا عملاقا بين الله والعالم.[1]

ذلك أن ما عرصه منه بيربايل في مقالته عن فكرة الجوهر لدى اسبينوزا يمنح لنا تصورا بأنه لا يمكن الفصل بين العالم والله في وحدة متجانسة إن صح التعبير هذا يعني أنه يمكن إحلال الكلمتين (الله والعالم) كل منهما مكان الأخرى «كما أن هذه النظرية أي نظرية الانسجام لاسبينوزا تهدف إلى حل صعوبة من صعوبات الديكارتية (وحدة النفس والجسد) التي وجد لها اسبينوزا فلا من خلال (الموازنة بين الفكر والامتداد».[2]

أي أن اسبينوزا في تصوره أن الله والعالم أو الطبيعة شيء واحد أو بمعنى آخر طبيعة خالقة فاعلة من جهة ومخلوقة منفعلة من جهة أخرى، كان هدفه هو إيجاد حل من خلال الموازنة أو المساواة في الفكر والامتداد.

«الجوهر يعني بها اسبينوزا الحقيقة الأساسية الثابتة، أما العرض فهو شيء معين، أو شكل أو حادث أو فكرة، أو صورة معينة زائلة، فأنت وجسمك وأفكارك وفصيلتك ونوعك وكواكبك ونجومك جميعها أعراض* جميعها صور وأشكال و هيئات من حقيقة أبدية خالدة ثابتة لا تتغير تقع وراء هذه الأشياء العرضية وتحتها، فهذه الحقيقة التي تقع تحت هذه الأشياء يسميها اسبينوزا جوهر

[1] بيار فرنسوا مورو، اسبينوزا والاسبينوزية، ت جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008م، ط1، ص: 126.

[2] المرجع نفسه، ص: 127.

* أعراض: هي ما يفتقر وجودها إلى موضوع كالمواد والحركة.

كما يدل عليه أصل هذه الكلمة التي تعني ما يقف تحت، ولكن هناك غلطة واحدة يجب أن تتجنب الوقوع فيها وهي أن كلمة جوهر لا يعني بها اسبينوزا المادة التي تشكل الشيء».[1]

نفهم من هذا أن اسبينوزا يرى بأن الجوهر يمثل الثبات و الحقيقة المطلقة التي تكون هي الأساس والمبدأ الذي يتكون منه الشيء أو العرض والذي يعني به كل ما هو زائل من أحوال وحوادث وأفكار فالجوهر يتميز عن العرض بالثبات والاستقرار أما العرض فيتميز بالتغيير.

يدلل اسبينوزا على أن الجوهر يجب أن يكون لا متناهيا، إذ أنه لو كان محدودا لكان لتلك الحدود بعض التأثير عليه، كما يدلل على أنه لا يمكن أن يوجد إلا جوهر واحد، ويتبين لنا أن هذا الجوهر هو العالم ككل، وهو بالمثل الله ذاته، ومن هنا فإن الله والكون، أي مجموع الأشياء كلها هما واحد ونفس الشيء، وهذه هي نظرية (شمول الألوهية) المشهورة عند االسبينوزا، وينبغي أن نؤكد أن العرض الذي يقدمه االسبينوزا لا يتضمن في ذاته أي قدر من التصوف بل إن المسألة كلها تمرين في المنطق الاستنباطي مبني على مجموعة من التعريفات والمسلمات المعروضة ببراعة عبقرية وربما كان ذلك أعظم أمثلة البناء المذهبي في تاريخ الفلسفة.

لقد كان التوحيد بين الله والطبيعة أمرا مكروها إلى أبعد حد، في نظر المتمسكين بحرفية العقيدة، ومع ذلك فقد كان مجرد نتيجة لبرهان استنباطي بسيط، وحين نتأمل هذا البرهان في ذاته، نجده سليما، وإذا كان يؤدي شعور البعض فما هذا[2] إلا دليل على أن المنطق ليس ملتزما باحترام مشاعر الناس، وما دام الله والجوهر يعرفان بالطريقة التقليدية فلا غبار على هذه الحجة، بل أن النتيجة التي ينتهي إليها اسبينوزا تفرض نفسها، وقد يؤدي هذا بالبعض إلى الاعتراف بأن في هذين اللفظين سمة معينة غير مألوفة .

وتماشيا مع هذه النظرية، ينظر اسبينوزا إلى عقولنا البشرية الكثيرة على أنها جزء من العقل الإلهي، وهو يشارك ديكارت تأكيده للوضوح والتمييز، إذ يقول «أن قوام الخطأ أو البطلان هو

[1] نفس المرجع السابق، ول ديوارنت، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص: 215.

[2] برتراند رسل، حكمة الغرب، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ت.د فؤاد زكريا، مطابع الرسالة، الكويت، ص: 81.

افتقار إلى الإدراك، تنطوي عليه الأفكار غير الكافية، أي المضطربة المختلطة، وما إن تتكون لدينا أفكار كافية، أو مطابقة حتى نصل على نحو مؤكد إلى معرفة نظام الأشياء وترابطها، الذي هو ذاته نظام الأفكار وترابطها، ومن طبيعة العقل أن يتأمل الأشياء لا من حيث هي عرضية، بل من حيث هي ضرورية، وكلها ازددنا قدرة على ذلك، ازددنا اقترابا من التوحد بالله، أو التوحد بالعالم وهو ما يعني نفس الشيء، وفي هذا السياق وضع اسبينوزا عبارته المشهورة التي يقول فيها (إن من طبيعة العقل أن يدرك الأشياء من وجهة نظر لازمانيه معينة) وتلك في الواقع نتيجة تترتب على القول أن العقل يرى الأشياء من حيث هي ضرورية، بين اسبينوزا كيف يمنع الذهن من الوصول إلى رؤية عقلية كاملة للكون، بسبب تأثير الانفعالات الذي يحول دون ذلك، فالقوة الدافعة لنا، من وراء كل أفعالنا، هي فقط الذات، وربما اعتقد البعض أن هذا المبدأ الأناني الصرف يدفعنا جميعا بأننا منافقون لا نفكر إلا في مصالحنا، غير أن[1] هذا الفهم يغفل كلية عن المقصود، ذلك لأن الإنسان في بحثه عن مصلحته الخاصة، يجد لزاما عليه، عاجلا أو آجلا، أن يسعى إلى الوحدة مع الله، وهو يحقق مسعاه هذا كلما تمكن من رؤية الأشياء (من منظور الأزل) أي من وجهة نظر لازمانية ».[2]

إن غموض مفهوم الجوهر يدفع إلى استخدامه بطرق مختلفة في الفلسفة لكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نحدده بكل كيان لا يعتمد على وجوده بأي شيء خارج ذاته لذلك لا يمكن أن نطلق إسم الجوهر إلا على الله، فهو سابق سبقا منطقيا على كل عرض ونحن لا ندرك الجوهر إلا من خلال أعراضه إي لا نستطيع أن ندرك إلا من خلال الإمتدادت للأعراض في الأشياء وما الفكر سوى عرض للجوهر الإلاهي[3]

[1] المرجع السابق ، برتراند رسل، الفلسفة الحديثة، ص: 82.

[2] المرجع نفسه، برتراند رسل، حكمة الغرب، ص: 83.

[3] هاني يحي نصري، الإسلام والمعرفة الفلسفية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص:19.

الفصل الثالث

دراسة نقدية

المبحث الأول: أهم الانتقادات:

أولا: أهم الانتقادات التي وجهت إلى اسبينوزا:

1- الانتقادات السلبية (خصومها):

ذلك هو المذهب وقد نعتبر الاعتقاد بوحدة الوجود حدسا شخصيا خطرا لاسبينوزا أو عرضه عليه ذلك الطبيب الذي علمه الفلسفة فشرع هو يشدد هيكله بما وجد من مواد عند ديكارت والرواقيين، ولكن هذا الحدس تأيد عنده بالتفكير في صعوبات الفلسفة الديكارتية، وبأن في نظره علاجا لها، هذه هي الصعوبات ترجع إلى فكرة العلية، فقد وزع ديكارت ظواهر الطبيعة إلى طائفتين أحدهما مادية والأخرى فكرية، ثم عجز عن تفسير العلاقة بين النفس والجسم في الإنسان لتباين هذين الجوهرين، فاعتقد اسبينوزا أن العلة والمعلول أن يكونا من نوع واحد، بحجة أن ما يكون في المعلول دون أن يكون لذاته في العلة، يكون صادرا عن العدم مع أن ديكارت نفسه كان قد قال، وأخذ عن المدرسين، فلزم عند اسبينوزا أن الكل واحد ضروري وأن الجوهر الأوحد علة باطنه لجميع الظواهر، هي في معلولاتها ومعلولاتها فيها معا العلة المفارقة المتعدية إلى خارج هنا ثنائية الله والعالم وثنائية النفس والجسم والتفاعل بينهما تمايز العقل والإرادة على ما يقتضى المذهب الأحادي من محو كل تميزيات فانتهى بذلك إلى الآلية مطلقة وهي المثل الأعلى الذي يرمي إليه العلم الحديث ومحا الغائبة وقصر معنى العلية على عليه الدعوى أو الترابط المنطقي دون عليه الوجود أو الفاعلية، وفاته أن يسوغ المبدأ الذي يقوم عليه مذهب ككل وهو أن الوجود مطابق للمعاني وللعلاقات التي يكتشفها العقل في نفسه.

ولكنه وقع في نفس الصعوبات وفي أخرى غيرها، فهو من الجهة الواحدة لم يوفق بين وحدة الجوهر وكثرة الصفات والأحوال أن تميز لم بين كيف يمكن أن يصدر عن الجوهر الواحد الثابت غير المعين.[1]

[1] نفس المرجع السابق، يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص: 125.

صفات وأحوال لا نهاية لها متغيرة إلا مالا نهاية تعينه بالضرورة مادامت هي صفاته وأحواله، بعد أن قال أن كل تعيين حد وسلب و لم يبين بالقياس ضرورة كون الجوهر مفكرا وممتدا لاسيما أنه بدأ بأن نعني عنه العقل وجعل منه علة ضرورية فحسب، فكيف يصدر العقل بعد ذلك عن لا عقل؟ كما أنه لم يبين أن في الجوهر أو في صفتي الفكر والامتداد ضرورة منطقية للشخص في أحوال جزئية، لقد أخذ من التجربة ومن ديكارت الصفتين وأحوالهما ثم أضافهما للجوهر إضافة خارجية، فالمنهج القياس عند مجرد دعوى لاسيما أن القضايا التي يطلب تسليمها دون برهان تربى على الأربعين، وتعريفات الجوهر والصفة والحال غير مترابطة تؤلف ثلاث مبادئ منفصلة.

ومن جهة أخرى ينفي اسبينوزا التفاعل كما أراد، فإنه يقول في الواقع بنوعين من علاقة العلية علاقة داخلية بين الجوهر والصفات والأحوال وعلاقة خارجية بين الأحوال بعضها ببعض، فكيف نفسر هذه وكيف نوفق بينهما وبين تلك إذ ساغ قبول العلية الخارجية في الأحوال، فلم لا نقلبها في صدر الأحوال نفسها عن الصفات فتعود إلى العلة الفاعلية المتعدية إلى خارج؟ ولاسيما أن اسبينوزا لم يبين مكان استنباط الحركة من الامتداد والحركة هي العامل في تكوين الأجسام الجزئية وتفاعلها، وكان أحد مراسليه كتب إليه أن هذه المشكلة محلولة عند ديكارت بقوله إلى الله خلق المادة متحركة وسأله عن حلها عنده هو مع اعتقاده مثل ديكارت عدم تضمن فكرة الامتداد لفكرة القوة فأجاب في 15 يوليو 1676م بأن تعريف المادة بأنها امتداد تعريف غير كافي وأنه يعتزم بحث المسألة بحث أدق وأعمق ولكنه مرض و لم يعد إليها، لو كان قد عاد لما كان اهتدى إلى حل ... إلا أن يضع المطلوب نفسه وضعا فيقول إن المادة [1] امتداد متحرك.

ومن جهة ثانية لما محا اسبينوزا التمايز الجوهري بين الفكرة الصادقة والفكرة الكاذبة وقال أن الفكرة الكاذبة ليست كذلك بذاتها ولكنها فكرة ناقصة تعتبر كاملة وأن ليس هناك من ثمة سوى درجات في طلب الحقيقة أنساق إلى محو التمايز الجوهري بين الخير والشر وإلى القول بأن

[1] نفس المرجع السابق، يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص: 126.

الشر فكرة ناقصة تعبر كاملة، وأن ليس هناك سوى درجات في طلب الخير، فأقام مذهب لا أخلاقي بالرغم من دعواه ليس فقط من هذه الوجهة بل أيضا من وجهات أخرى إذ أنه أنكر الحرية والغائية والتمايز بين الممكن والضروري على حين أن مفهوم الأخلاق أنها نظام معقول بتعين تحقيقه بالإرادة وأن تفضيل حياة الضربين الثاني والثالث من ضروب معرفة مؤقتة إرادة وشجاعة ولا يكفي فيه مجرد العلم، وما ذلك الخلود الذي هو معرفة مؤقتة لما هو خالد؟ وما الله في مذهبه يؤله الطبيعة ولا يعترف بوجود شخص مفارق لها المذهب كله ملئ بالألفاظ توهم أن لها مدلولات وهي لا تدل على شيء، أما آراء اسبينوزا في الدين قلنا عليها ردود ليس هذا مكانها وهي تمثل أصدق تمثيل المذهب العقلي الحديث، و لم يزد عليها اللاحقون شيئا جديدا، وإن كان كانت هي في الواقع الأمر صدى لآراء سابقه.[1]

2- النقد الإيجابي لاسبينوزا (أنصار الإسبينوزية):

لقد اختلفت الآراء في تقويم فلسفة اسبينوزا اختلافا وصل بالمختلفين إلى حد التناقض فقد اعتبر البعض بعض مثلا للملحدين لقوله بوحدة الوجود وإنكاره للعناية الإلهية والعلل الغائية وعدم اعترافه بما لله من حرية واختيار نقده للكتب المقدسة خاصة العهد القديم، كما ألغى الحرية الإنسانية متمثلة في إرادة الإنسان، بينما اعتبره البعض الآخر أعظم العقول في العصور الحديثة، وقال فيه ارنست ويتان «وهو يختم مراسم التحية بعد إزاحة الستار عن تمثاله في ميدان مدينة لاهاي 1882م» هنا تراءت في غالب الظن، أصدق نظرة إلى الله ولكن هنري ودانالي توماس يصححان له قوله ويستبدلانه بقولهما «هنا – في غالب الظن: تجلى أصدق حسب لبنى الإنسان».

وإن نظر في فلسفة اسبينوزا نفسها نجده يعلن منذ البداية أن هدفه من فلسفته هو الكشف عن حياة الإنسان السعيدة وأراد أن يصل إلى مثل هذه الحياة السعيدة عن طريق الحب العقلي لله، هذا الحب القائم على فهم الطبيعة الإنسانية والكون والسعادة.

[1] نفس المرجع السابق، يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص: 127.

وكانت المعرفة لديه تعتمد على تحرير الفهم من أفكار الإدراكات الحسية الغامضة المضطربة، وهذا ما حاول اسبينوزا أن يشرحه من خلال سطور كتابه الأساس (الأخلاق) وهو كتاب يتألف من أنساق من خلال التعريفات والبديهيات والنظريات وقد نجح في بنائه على غرار الأبنية الهندسية إي نجاح تفوق فيه على رائد المدرسة العقلية ديكارت .[1]

يرى رويس بأن اسبينوزا المثل الحقيقي للفلسفة الحديثة بالرغم من اعتراضه بقيمة ديكارت وجوهر اسبينوزا الأزلي له عدة تعبيرات لا نعرف منها إلا اثنين الأول العالم المادي (الجوهر المجسم) والعالم الثاني (العالم الباطني المفكر)[2].

والعالمان متساويين ومشتركان في القدرة على التعبير عن الحقيقة المطلقة والألوهية والإله يحل فيهما معا، وينتهي رويس من عرضه اسبينوزا بتأويله تأويلا ينبثق مع مذهبه الفلسفي الذي يعرضه في الجزء الثاني من الكتاب بأن عقلنا يدرك العالم على أنه كائن حي واحد ينشر قانونه الأزلي في كل مكان، وكل حب من جانبين حب الله ونحن جزء منه وفيه نحيا ونعيش.[3]

ثانيا: النقد الموجه لوحدة الوجود كمذهب:

إن القول بوحدة الوجود إن الوجود واحد، بمعنى أن الموجودات اشتركت في مسمى الوجود، فهذا صحيح لكن الموجودات المشتركة في مسمى الواحد لا يكون وجود هذا منها عين وجود هذا بل هذا اشتراك في الاسم العام الكلي كالاشتراك في الأسماء التي يسميها النحاة اسم الجنس ويقسمها المنطقيون إلى جنس ونوع وفصل وخاص وعرض عام، فالاشتراك في هذه الأسماء هو ملتزم لتباين الأعيان وكون أحد المشتركين ليس هو الآخر إذ فوجود الله تعالى وهو الحق المباين للمخلوقات، أعظم من مباينة هذا الوجود أو ذاك كما أن الفلك مباين لوجود الذرة أو البعض منه، لذلك يقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية «لا يعرف التوحيد إلا الواحد، ولا تصح العبارة عن

[1] نفس المرجع السابق، ، إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت هيوم، ، ص: 211.
[2] نفس المرجع السابق، جوزيا رويس، ترجمة حسن حنفي، روح الفلسفة الحديثة، ص: 13.
[3] المرجع نفسه، ص: 14.

التوحيد وذلك لا يعبر عنه إلا بغير ومن أثبت غيرا، فلا توحيد له، إن هذا القول مع كفره متناقض، لا يعرف التوحيد إلا واحد» ويقتضي أن هناك واحد يعرفه وأن غيره لا يعرفه، فهذا التفريق بين من يعرفه ومن لا يعرفه وفي نفس الوقت إثبات لإثنين أحدهما يعرفه والآخر لا يعرفه، إنه إثبات متغاير وهذا تناقض.

وبناءا على ما تقدم فإن وحدة الوجود التي يشير إليها هؤلاء الملاحدة المؤمنون بها أمر ممتع في نفسه، لا يمكن تصور تحققه في الخارج، أي في العالم الخارجي، فإن الوحدة العينية الشخصية تتمتع في الشيئين المتعددين ولكن الوجود واحد في نوع الوجود، بمعنى أن الاسم الموجود اسم عام يتناول كل أحد كما أن اسم الجسم والإنسان ونحوهما، يتناول كل جسم وكل إنسان، وهذا الجسم ليس هو ذلك، وكذلك هذا الوجود ليس هو ذلك.[1]

ولقد علم بالكتاب والسنة والإجماع، وبالعلوم العقلية الضرورية، إثبات غير الله تعالى، وأن كل ما سواه من المخلوقات فإن غير الله تعالى ليس هو الله، ولا صفة من صفات الله تعالى، ولهذا أنكر الله عز وجل على من عبد غيره، ولو لم يكن هناك غير لما صح الإنكار، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ [سورة الزمر الآية: 64] وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...**﴾ [سورة الأنعام الآية: 14] وقال أيضا: ﴿ **... هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ [سورة فاطر الآية: 03] وقال أيضا: ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا...**﴾[سورة فاطر الآية: 114] .[2]

[1] نفس المرجع السابق، الذكتور إبراهيم مصطفى، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص: 213.

[2] المرجع السابق، د مانع بن حماد الجهني، الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص: 788.

موقف الإسلام من المذهب:

الإسلام يؤمن بأن الله جل شأنه خالق الوجود متره عن الإتحاد بمخلوقاته أو الحلول فيها والكون شيء غير خالقه، ومن ثم فإن هذا المذهب يخالف الإسلام في إنكار وجود الله، والخروج على حدوده وتخالف في تأليه المخلوقات وجعل الخالق والمخلوق شيئا واحدا، ومخالفة في إلغاء المسؤولية الفردية والتكاليف الشرعية والانسياق وراء الشهوات البهيمية وتخالفه في إنكار الجزاء والمسؤولية والبعث والحساب.

ويرى بعض الدعاة أن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط، وأن هذا المذهب نحاة لكل إباحي ويلتمس السبيل إلى نيل شهواته تحت شعار من العقائد، أو ملحد يريد أن يهدم الإسلام بتصعيد الشهوات، أو معطل تحاول من تكاليف الكتاب والسنة.[1]

[1] نفس المرجع، د مانع بن حماد الجهني، ص: 788.

المبحث الثاني: أهم تأثيرات المذهب السبينوزي:

أولا: المجال الفلسفي:

لم يحاول االسبينوزا أن يضع مذهبا، و لم يضع مذهبا، ومع ذلك فقد نفـــذت أفكـــاره إلى الفلسفة من بعده، لقد كان اسمه مصدر بغض ومقت في الأجيال التي أعقبت موته، ويقـــول لنـــا ليستنتج أن الناس كانوا يتحدثون عن اسبينوزا باحتقار وكأنه كلب ميت، ولكن ليســـتنتج هـــو الذي أعاد له شهرته وذكره، وأثار دهشت الناقد الكبير جاكوبي في أحاديثهما المشهورة في عـــام 1780م بقوله أنه قد تأثر باسبينوزا إلى درجة كبيرة في أعوام نضجه، مؤكدا له أن لا فلســـفة إلا فلسفة اسبينوزا، وبعد سنوات قليلة استغلت كتابات هيردر عن اسبينوزا اهتمام معلمي اللاهوت الأحرار كتاب (الأخلاق) وكتب زعيمهم شلاير ماخر عن اسبينوزا المقدس المحروم والمنبوذ وأطلق عليه الشاعر د الكاثوليكي نوفاليس اسم (الله مسكر الناس)، وفي الوقت ذاته فقد أثار جـــاكوبي اهتمام جوته باسبينوزا الذي قال بعد قراءة كتاب (الأخلاق) لأول مرة، أنه الفلسفة التي تاتت لها روحه، والتي طغت بعد ذلك على شعره ونثره وأثرت على تفكيره ومجرى حياته، ويدمج فلســـفة اسبينوزا مع فلسفة (كانت) عن المعرفة والمنطق توصل فخته وشلنج وهجل إلى وحدة الوجود كما رآها كل واحد منهما.[1]

لقد ارتفع تأثير اسبينوزا في انجلترا أثناء الثورة، وتأثر به كوليردج وويرد سورث واقتـــبس شيلي من رسالة الدين والدولة، وفي القرن الثاني بعد اسبينوزا جمعت التبرعات لإقامة تمثال لـــه في لاهاي، وإنهالت هذه التبرعات من كل حدب من العالم المثقف، وعند إزاحة الستار عن تمثاله في عام 1882م ألقى أرنيست رينان كلمة اختتمها بقوله «ويل لمن يمر أمام هذا التمثال ويوجه إهانة أو لعنة لهذا السيد والفيلسوف المفكر، لأنه سيعاقب بخسة تعاقب جميع النفوس الخسيسة العـــاجزة عن تصور الله ...».[2].

[1] نفس المرجع السابق، رول ديورانت، قصة الفلسفة، ص: 246.

[2] المرجع نفسه، ص: 247.

تعرضت أعمال اسبينوزا بقدر كبير من التأويلات المتنوعة لم يعهده غيره من الفلاسفة، قد لا يبين هذا سوى تشابه نسقه الكوني مع الكون الذي يعكسه، ثمة تفسير أقل إثارة للجدل مفاده أنه وفقا لنقطة بدء القارئ، قد يكون نسقت دعوة للتخلي عن المعتقد والممارسة اليهودية، أو بعث لمفهوم الله الذي بدا أنه يحتصر في القرن السابق عشر والثامن عشر ساد اعتباره ملحدا متخفيا على نحو استثنائي، وفي القرن التاسع عشر اعتبر مبشرا بالمثالية المطلقة – بعض المفكري القرن العشرين يعتبرونه بطريقة تفكير أحادية الأبعاد مبشرا بعلم تأويل معرفي للعقل، في حين كاد آخرون يعتبرونه ذريا منطقيا، فيما احتفى آخرون بمذهب وحدة الوجود كونه يطرح أساسا (علم بيئة معمق) من ضمن المفكرين الذين تأثروا به نذكر جوهن لنسج، هين، نيتشه، جورج اليوت، .....[1]

نفهم من هذا أن التأثير الكبير لايسنوزا على باقي الفلاسفة الذين تم ذكرهم يدل على مدى نسقية فلسفته ودقة منهجه رغم ما تعرض له من اضطهاد من طرف رجال الدين.

تأثير اسبينوزا على هيجل:

أعلن اسبينوزا عن مبدأ كان له أهمية بالغة، وهذا المبدأ هو «كل تعين سلب أو جميع التحديدات عبارة عن سلب، فتحديدك لشيء ما معناه فصله عن دائرة الوجود، أي حده، والتعريف معناه وضع الحدود للشيء فقولك عنه إنه أحضر يعني أنك حددته أو فصلته عن دائرة القرنفلي، وقولك عنه أنه خير معناه فصله عن دائرة الشر، وهذا التحديد هو كالسلب سواء، فإثبات حدود معينة لشيء ما هو إنكار أنه يتعدى هذه[2] الحدود فقولك عنه أنه أخضر يساوي قولك عنه إنه أحمر، فالإثبات يتضمن النفي، وأيا ما يقال عن شيء ما هو إنكار لأشياء أخرى، كذلك فالتحديد كله عبارة عن نفي أو سلب ».

[1] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ج1، ترجمة نجيب الحصادي، مراجعة عبد القادر الطلعي، المكتب الوطني للبحث والتطور، ب.ت، ص: 68.

[2] ونترترنس ستيس، فلسفة هيجل، ت د إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، 1996م، ص: 61.

وهذا المبدأ أساسي عند هيجل أيضا، ولكنه اتخذ في فلسفة هيجل الصورة المقابلة وهي أن «كل سلب هو تحديد أو تحديد، وسوف يذكرنا المناطقة الصوريون بأننا لا نستطيع أن نعكس قضية اسبينوزا على هذا النحو ولكن يكفي للرد عليهم أن نشير إلى أن الإثبات لا يتضمن النفي فحسب، بل إن النفي أيضا يتضمن الإثبات، فأفكارك انتماء شيء ما لفئة معينة يعني أنك تدرجه تحت فئة أخرى على الرغم من أنك قد لا تعرف ما هي هذه الفئة الجديدة، فالسلب والإيجاب متلازمان، ويتضمن الواحد منهما الآخر، فبدأ اسبينوزا إذن هو أيجاب الشيء هو نفيه، أو وضع الشيء يعني سلبه، أما مبدأ هيجل فهو نفي الشيء معناه إيجابه أو سلب الشيء يعني وضعه».

والفكرة الهيجلية عن اللامتناهي مدينة بالكثير[1] لااسبينوزا أيضا فكون الشيء لا متناه يعني أنه غير موجود، ومن ثم فالشيء المعين هو الشيء المحدد، أو المحدود لأن التعين تحديد، وسوف يؤدي بنا إلى نتيجة نقول إن اللامتناهي هو اللامتعين ، فما دام الشيء لا تعين له لا صفات له كذلك من أي نوع، ومادمنا لا نجد صفة تصفه بها، فإن اللامتعين سوف يكون في هذه الحالة الفراغ الكامل، أو هو في الواقع عبارة عن خواء وخلاء Vacancy والجوهر عند اسبينوزا هو هذا الفراغ اللامتعين، ومع ذلك فهناك فكرة أخرى تكمن – ربما في غير اتساق- في أعماق فلسفة اسبينوزا نقول، إن الجوهر علة ذاته Causasui ومن ثم فهو ليس اللامتعين بل هو المتعين بذاته، فتحديداته ليست نابعة من مصدر خارجي، بل من ذاته فقط، ومن ثم اللامتناهي ليس هو الذي لا نهاية له، ولا غير المحدد أو المتعين – كما هو معروف في التصور الشائع- بل هو المتعين بذاته، أو المحدود بذاته، وتلك هي الفكرة الرئيسية من اللامتناهي عند هيجل.

لكن ذلك بالطبع لا يستوعب فكرة هيجل عن اللامتناهي كلها، وإنما يعمل على العكس أهم عناصرها المتميزة، ومع ذلك فإن جذور فلسفته عن اللامتناهي نجدها هنا في فلسفة اسبينوزا.[2]

[1] المرجع السابق، فلسفة هيجل، ص: 52.

[2] نفس المرجع السابق، ولترترنس ستيس، فلسفة هيجل، ص: 63.

اعتبر هيجل فلسفة اسبينوزا مرحلة ديالكتيكية مهمة على نحو خاص في تشكيل فكرته المطلقة.[1]

تأثير اسبينوزا على فلسفة ينتشه:

في إحدى رسائله لسنة 1881م عبر فريدريك نيتشه عن اكتشافه لاسبينوزا ودهشته الشديدة لعمق التشابه بينهما، وفي رسالته أبلغ الدلالة على التغيير الجذري الذي أصاب الموقف الفكري الأوروبي إزاء اليهود إجمالا وإزاء اسبينوزا بوصفه علامة رئيسية من علامات المكون الذي تركوه في الحضارة الغربية.

إنني مندهش تماما، ومشدود إلى أقصى حد! إن لي سلفا، و أي سلف! لم أكن أعرف اسبينوزا أن اتجه إليه في هذا الوقت تحديدا، لابد أن ما حركني هو (العزيزة)، فليس توجهه العام فحسب هو الذي يشبه توجهي – جعل المعرفة المؤثر الأقوى- ولكنني أرى نفسي أيضا في خمس نقاط من مذهبه، هذا المفكر الأكثر غرابة وعزلة هو الأقرب إلى سبب هذه المسائل تحديدا، إنكاره حرية الإرادة الغائبة نظام العالم الأخلاقي، اللا أناني، النشر.

الرسالة ككثير من كتابات نيتشه لا تخلو من الألغاز لكن الدلالة واضحة، لاسيما الفورة العاطفية في التعبير.[2]

التأثير على الكاتبة اليوت:

من الصعب تتبع التأثير السبينوزي في الأدب، أو الآداب الغربية، لأنه تأثير واسع زمانا ومكانا، فمن الناحية الزمنية يمكن العودة بدياياته إلى الحركة* الرومانتيكية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حين اكتشف الرومانتيكيون الألمان والإنجليز، نزوعهم المعروف إلى الطبيعة، السمة الحلولية لفلسفة اسبينوزا، وكذلك باكتشافهم لإضافاته في مجال نقد الكتاب المقدس، أما

[1] نفس المرجع السابق، أند هوندرتش، دليل اكسفورد للفلسفة، ص:68.

* الرومانتيكية، صفة الحركات التي ظهرت في أروبا بعد عصر النهضة.

[2] نفس المرجع السابق، سعد البازعي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، ص: 154.

من ناحية المكان فاسبينوزا حاضر في الآداب الغربية الرئيسية كلها على نحو ما، سواء كان ذلك في أوروبا، أو أمريكا الشمالية، فقد استلهم اسبينوزا في القصة، فكتبت روايات حوله، وصورت شخصيات تحاكيه ووردت إشارات كثيرة إليه في الشعر وغيره من الفنون الأدبية.

الكاتب الألماني بيرتولد أورباخ نشر سنة 1837م رواية مؤسسة على شخصية اسبينوزا، والروائي الأمريكي المعاصر واليهودي الأصل بيرنارد مالامود استدعى شخصيته في رواية بعنوان (المصلح) إلى غير ذلك من الأمثلة.

اهتمت جورج اليوت باسبينوزا وبنقد الكتاب المقدس الذي كان اسبينوزا رائدا لتطوره، واستلهمت بعض أعمالها الرئيسية من تلك المصادر لكن الأهم هو التحول الذي مرت به اليوت نفسها، في خضم اهتماماتها تلك، من مهامها المسيحي المتدين لتكون واحدة من أشهر الملحدين والداعين إلى الإلحاد، والليبرالية المتطرفة في الثقافة الغربية.

ومن اللافت أن يتوافق كل ذلك، لاسيما اهتمامها باسبينوزا وبالتراث الفكري الذي تركه وتأثيره عليها، مع اهتمام سياسي وثقافي آخر هو اهتمامها باليهود ودعوتها إلى صهيونية مبكرة تدعوا إلى استيطان اليهود في فلسطين، وهو مالا تستطيع المصادقة وحدها أن تفسره.[1]

ثانيا: المجال العلمي (فيزياء أينشتاين) :

القول أن العلم الحديث نشأ بسبب الأبعاد الإنسانية الفريدة في الثقافة الغربية لن يبدو قولا يتسم بالمفارقة، إلا أننا لم نتناول تلك الالتزامات التي لا يكون المرء عالما دونها بأشكالها الدينية والفلسفية والقانونية، وقد يقال بعبارة أخرى أن أسس العلم الحديث، سواء منها الثقافية أو المؤسسية، توجد بالضبط في تلك المجالات الواقعة خارج العلم حيث يتأمل البشر في طبيعة الكون بأعمق معانيها وأشدها غموضا، وحين يخلق الخيال الإنساني المؤسسات التي تسمح للأفراد بالاستمتاع على الدوام بالفضاءات المحايدة دون التعرض للرقباء السياسيين والدينيين، وليس هناك

[1] نفس المرجع السابق، سعد البازغي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، ص: 157.

خليقة علمية فقط، بل هناك أيضا مجموعة أكبر بكثير من المسلمات الميتافيزيقية التي لا يكون المرء عالما دونها.[1]

يعتبر أينشتاين من بين العلماء القلائل الذين خلقوا توجها نوعيا في تاريخ الفيزيـــاء إذ أن صدور النظرية النسبية بشقيها الخاصة والعامة قد قلب تصورها لمجموعة من المفاهيم، هذا يمكننـــا القول أن النظرية النسبية كانت بمثابة ثورة، ثورة لم تبق حسية المجال العلمي، إذ أنها اكتســـحت المجال الفلسفي، بل إن القارئ لنظرية أينشتاين ليجد نفسه إزاء نظرية فلسفية تســـتمد جـــذورها الميتافيزيقية والايستمولوجية من فلسفة اسبينوزا فلقد اتخذ اسبينوزا من المنهج الرياضـــي ســـبيلا لعرض أفكاره وتطوراته، إن هذا الموقف الاسبينوزي نجده حاضرا في موقـــف أينشـــتاين مـــن الرياضيات، بحيث نجد هذا الأخير يتحدث عن صورة العالم قائلا «إن هذه الصورة تشترط أعلى مستويات الدقة في وصف العلاقات بما لا يتوفر تحقيقه إلا بالتزام الرياضة لغة للوصف».[2]

حيث اتخذ اسبينوزا المنهج الرياضي كوسيلة للتعبير عن فلسفته بما تحويه من أفكـــار وآراء ومعارف فهذا يدل على أنه قد اقتنع أن المعرفة الرياضية هي أعلى درجات المعرفة وذلـــك بـــأن الحقائق التي تنتج عن الرياضيات هي حقائق يقينية قائمة بذاتها التي لا يعرف الشك طريقـــا لهـــا، باعتبار أن غاية الفيلسوف هي الوصول إلى الدقة واليقين المعرفي، و هذا ما نجده حاضـــرا عنـــد اينشتاين ، بحيث يعلن أن الرياضيات هي الكفيلة بوصف العالم الخارجي بصفة دقيقة ومتناســـقة، بالإضافة إلى تأثير آخر وهو يتعلق بالجانب المعرفي بحيث أننا عندما ندرس نظريـــة اســـبينوزا في المعرفة سنجده يصب اهتمامه بالمعرفة الحدسية، وهذا ما يؤكده اينشتاين أيضا وذلك بأن الحدس هو الوحيد القادر على كشف القوانين العامة لهذا الكون.

[1] توبي أهن، فجر العلم الحديث، ت: د محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويـــت، 1997م، ص: 28.

[2] محمد رتيبي، قراءة في مواقف اينشتاين، الحوار المتمدن، 2012/11/03م

ومن بين المساءل التي تبرز حضور ميتافيزيقا اسبينوزا في فيزياء أينشتاين هي مسألة الحتمية، فلقد أكد اسبينوزا أن كل ما يحدث في الطبيعة خاضع للضرورة وذلك أن الله هو علة لجميع الأشياء بشكل مطلق فكل شيء ينتج عن قدرة الله اللامتناهية منذ الأزل وإلى الأبد، وتبعا لذلك فحتى المستقبل محكوم بالضرورة لأن قدرة الله سرمدية* بهذا التصور الحتمي نجده جليا في تصورات اينشتاين لأن العالم محكوم بالعلل والأسباب وعليه فالمستقبل للعالم من جميع دقائقه محدد وحتمي مثل الماضي تماما، إن تمسك اينشتاين بموقف اسبينوزا القائل بالحتمية هو ما يفسر رفضه لمبدأ عدم اليقين الذي تقدم به العالم الألماني هايزنبرغ، ذاك أن تصور هذا الأخير يرفض مبدأ الحتمية، ويقول باللايقين ومن ثم لا سبيل للقول بأن الوجود خاضع لقوانين حتمية لقد ضل اينشتاين رافضا لهذا المبدأ ولعل قولته الساخرة « إن الله لا يلعب النرد في الكون» هي أبرز دليل على ذلك.

يعتبر سنة 1905م سنة ثورية في تاريخ العالم فالأحداث فيه تتسارع وحركة المجتمعات والأفكار تتقدم بعجلة إلى الأمام في هذه السنة الحاسمة قام اينشتاين بخطوات من شأنها أن تقلب وجهة نظرنا الكونية رأسا على عقب، ففيها قد وضع نظريته النسبية الخاصة ونظرية الكم ونظرية الحركة البراونية* والتي جعلت الأرض تميد تحت أقدام العلماء الكلاسيكيين وأدت كذلك إلى زعزعة الأسس الصلبة للعلم الحديث.

لقد لبث العالم مدهوشا مستغربا أمام العدد الضخم من الأفكار الجديدة التي طلع بها هذا الفيزيائي الألماني (1879م-1955م) والذي لم يفكر إلا في الثغرات والفجوات التي يستشعرها في نظرياته لقد كانت أفكاره تتدفق كالسيل الذي لا ينضب معينه وكان هو نسيج بأسره فكان جم الأدب عظيم التواضع رجل ذكي مستقل وحر التفكير متمردا على نظام التعليم يعشق الانسجام

* سرمدية: دوام لا بدا له ولا نهاية له.

* البراونية: سمية تشريفا لعالم الأحياء، روبرت براون و تعني الحركة العشوائية لجزيئات ميكرونية.

في العالم من خلال الموسيقى والفيزياء النظرية محبا للتأمل والعزلة يحل المشاكل بأبسط الطرق يحرص على أن يسوق أفكاره بأكثر وضوح وأن يكون مفهوما من قبل الجميع.[1]

إن الاهتمام باينشتاين الفيلسوف هو أمر في غاية الصعوبة والتعقد خصوصا وأن فلسفته إن كانت له فلسفة ليست بتلك البساطة بل يكتنفها الغموض ومليئة بالتناقض والتردد، لما كان اينشتاين يهتم بالقوانين العامة للفيزياء فسرعان ما وجد نفسه أمام مشاكل تتناولها في العادة كتب الفلاسفة، فخلافا لغيره من أصحاب الاختصاص كان لا يتورع عن مراجعة الكتب التي لا تدخل في دائرة اختصاصه، وكان يقبل على كتب الفلاسفة يحدوه إلى ذلك عاملان متعارضان:

- ابتغاء التسلية لأنهم في نظره سطحيون يتوخون الغموض في كل شيء ويتكلمون في كل شيء على الرغم من التفاوت الموجود بينهم هؤلاء الفلاسفة هم شبنهاور ونيتشه.

- الاستفادة من كتبهم والاقتباس من أرائهم وتعلم بعض الأشياء التي تساعده على تفهم طبيعة المبادئ العامة للعلم ولاسيما علاقتها المنطقية بالنواميس التي تعبر عن الملاحظات المباشرة مثل هيوم وماخ وكانط واسبينوزا، بيد أن اللقاء بينه وبين اسبينوزا لم يكن ليحدث على مسرح التاريخ لولا اعتراف اينشتاين بنفسه بهذا التأثر في رسائله وكتبه وخاصة كتابه: هكذا أرى العالم ورسالته إلى صديقه موريس سولوفيز سولوفين.

والآن نتساءل هل تأثر اينشتاين فعلا باسبينوزا؟

- ما هو متعارف عليه أن اينشتاين يثني على الفلسفة ويمدح الأفكار الفلسفية فقط.

- أخذ عن هيوم ورسل فكرة النسبية لإعجابه بمذهبهما الريبي.

- كما نظر باندهاش إلى اعتبار كانط مقولتي الزمان والمكان من مقولات الذات وخروجه عن النص النظري لصاحب كتاب المبادئ نيوتن.

[1] زهير الخويلدي، أرشيف الفكر العلمي، مجلة أقلام الثقافة.

- زيادة على انتباهه إلى أهمية الرفض الديكارتي لفكرة الخلاء أو الفراغ في الكون وتفسيره الحركة من خلال التصادم بين الأجسام.

أضف إلى ذلك أنه القائل عند تعيينه سنة 1950م تحت عنوان (الفيزياء و الفلسفة والتقدم العلمي إذا اعتبرنا الفلسفة بحثا عن المعرفة العامة و الأكثر شمولية فإنه ينبغي إذن أن ننظـــر إليهـــا بشكل بديهي على انه أم لكل تساؤل علمي ...

هذا التصور للعالم إذا نظرنا إليه من زاوية فلسفية هو بالتحديد مرتبط بالواقعية العفوية أو بالتصور الذي يرى المواضيع في القضاء ممثلة مباشرة من خلال الإدراكات الحسية.

من هنا يتبين لنا أن الأسئلة الرئيسية في الفيزياء من طبيعة فلسفية وأن الفيزيـــائي يكـــون بطبعه فيلسوفا.

يصرح اينشتاين في كتابه تطور الفيزياء تحت عنوان الخلفية الفلسفية فتعرض نتائج البحث العلمي في أحيان كثيرة تبدلا في النظرة الفلسفية إلى مسائل تمتد إلى ما وراء ميدان العلم المفيد، ما هو هدف العلم؟ ما هو المطلوب من نظرية تحاول أن تصف الطبيعة؟ إن هذه الأسئلة ترتبط ارتباطا وثيقا بالفيزياء مع أنها تتخطى حدوده لأن العلم يشكل مادة نشوئها، وينبغي أن تبنى التعميمـــات الفلسفية على النتائج العلمية .

إن الثورة الناجحة على وجه نظر قائمة ومقبولة تؤدي إلى تطورات غير مرتقبة ومختلفـــة تماما عما سبقها وتتحول إلى مصدر إلى نظريات فلسفية جديدة هذه الملاحظات تقر بأن العلم يبدأ عندما تتأزم الفلسفة وتشرع في التوقف وأن الفلسفة تبدأ عندما يشرع العلم في التنظيم والتوقف.

إذا كذلك كان اللقاء بين الفيزياء والفلسفة من تحصيل حاصل أو من مستلزمات التقـــدم العلمي ذاته فكيف تم اللقاء بين فيزياء اينشتاين وفلسفة االسبينوزا وضمن أي سياق نظري؟

إن الأساس المشترك بين الرجلين هو استخدام المنهج الرياضي والإيمان بالضرورة المطلقة في الكون.

1- ميتافيزيقا اسبينوزا:

من المعلوم أن االسبينوزا اتبع في كتبه: الأخلاق و مبادئ فلسفة ديكارت والرسالة الموجزة كمنهج الرياضيين في الهندسة كما تضمنته من تعريفات وأوليات ومسلمات وقضايا وحدود وبراهين وحواشي تماما مثلما تتضمنه كتب علماء الهندسة، وقد اقتدى اسبينوزا في ذلك باقليدس وابن ميمون وسكوت وبروكلس، لقد تضمن كتاب الأخلاق العنوان الفرعي التالي: «الأخلاق مبرهنا عليها على المنهج الهندسي في خمس أجزاء تبحث:

- في الله.
- في طبيعة النفس وأصلها.
- في أصل الانفعالات وطبيعتها.
- في عبودية الإنسان أو في قوى الانفعالات.
- في قوة العقل أو في حرية الإنسان.

إن التصور الميتافيزيقي عند اسبينوزا يقوم على:

- استبعاد الغائية في التفسير العلمي.

- وجود توازي عقلي –فيزيائي في كل الكون.

- وجود جوهر واحد هو الطبيعة – الله وهي طبيعة طابعة أو مجموع الصفات اللامتناهية ومن بينها الفكر والامتداد والطبيعة المطبوعة فتشمل كل الأحوال تبدأ من تلك التي تنبسط مباشرة من الصفات مثل الذهن اللامتناهي والحركة والسكون إلى أكثر الأشياء تحديدا.

- الضرورة مطلقة في الكون وكل شيء خاضع لقانون دقيق ولا شيء يحث صدفة».

إن الإنسان عند اسبينوزا هو نمط محدود وهو نتاج للجوهر الواحد لأنه لا يوجد إلا جوهر ما عدى الله الذي يمثل في الوقت ذاته بسبب وجوده وسبب ماهية الأشياء «الله واحد بمعنى ... أنه

لا وجود في الطبيعة إلا لجوهر واحد ، لأن النفس والجسد شيء تارة تتصوره من جهة الفكر وطورا من جهة الامتداد ... ».

2- فيزياء اينشتاين:

أما رجل العلم فتمسكه روح السببية الكونية فالمستقبل بالنسبة للعالم في جميع دقائق حياته محدد وحتمي مثل الماضي تماما.

ينظر اينشتاين إلى الرياضيات على أنها مبدعة، خالقة للنظريات الفيزيائية تعلمنا الرياضيات مبادئ لغة الطبيعة في هذا السياق يصرح اينشتاين: «إن البناء الرياضي المحض يمكننا من اكتشاف المفاهيم والقوانين التي تصل بينها» فالرياضيات تمنح الفيزياء العديد من المزايا منها:

- تمكننا من الاقتصاد في التفكير والنجاعة في التفسير.
- تمنح النسق الفيزيائي بنيته وتذهب به في الاختزال المنطقي شوطا كبيرا.
- تجعل الفيزياء النظرية تحصل على قاعدتها الأكسيومية مما يمكنها من اكتشاف ثغراتها وتناقضاتها.
- الفيزيائي من خلال الرياضيات يستطيع الحصول على صورة ما عن الآلية التي تتحكم في سير قوانين الكون.

خاتمة

خاتمة

نستنتج في الأخير أن باروخ اسبينوزا رغم ما تعرض له من محاولات الاغتيال والاضطهاد ومن طرف رجال الدين والمتعسفين استطاع أن يقيم معرفة فلسفية فكان أول ما كتبه (رسالة في مبادئ العقل مبرهنة على الطريقة الهندسية) أما أهم كتبه و أكبرها هو كتاب (الأخلاق) ويمكننا القول أيضا بأن باروخ اسبينوزا أستقى فلسفته من فلسفات أخرى أبرزها فلسفة ما لبراتش وديكارت كما درس التعوذ وشعر القدماء وما ساعده على ذلك هو دراسته اللغة اللاتينية التي استطاع من خلالها أن يطلع على تراث الفكر الأوروبي ولكن رغم هذا إلا أن اسبينوزا مدين لديكارت بكثير من فلسفته من خلال المنهج الرياضي وذلك أن العالم كله بما فيه من أجسام هو آلة تسير مجبرة، بحيث أن فلسفة اسبينوزا كلها قائمة على فكرة واحدة هي أن الفكر والمادة هما النظامان الأساسيان لهذا العالم، فقد كان منهجه يقوم على الضرورة المنطقية لأنها في نظره يقينية مطلقة مع شرط أن يتوفر للشخص الإدراك الكافي لماهيات الأشياء كما أنه يدرس مناهج التفسير حيث يرى أن التفسير لا يجب أن يقتصر على فرد معين يفهم من ذلك أن لكل الأفراد الحرية في التفسير و هذا ما يؤكد رفضه لسلطة الكنيسية في تفسير الكتاب المقدس فقد اختار أن يفسر الكتاب بكب حرية ذهنية.

أما في نظريته في المعرفة فهو يعطي أهمية بالغة للمعرفة التي تستند إلى العقل دون برهان، هنا تظهر نزعة اسبينوزا العقلانية فقد بدأ فلسفته من فكرة الله، فيذهب اسبينوزا إلى القول بأن ثمة جوهر واحد فقط هو الله، فكل هذا العالم هو مجرد مظهر من مظاهر كلية واحدة، فالعالم في نظر اسبينوزا هو عالم لا نهائي ليس له بداية ولا نهاية وعلى هذه الفكرة بنى نسقه الفلسفي فالله وجود لا متناهي بحيث يرفض اسبينوزا النظر إلى الله من وجهة نظر إنسانية فالله هو الجوهر أي الحقيقة الثابتة اليقينية.

لقد كانت فلسفة اسبينوزا في قمة الدقة والاتساق فقد صدق هيجل عندما قال إما الاسبينوزية إما لا فلسفة على الإطلاق فكانت نظرية وحدة الوجود عند اسبينوزا عرضة لجملة من الإطارات فتأثر به المجتمع العلمي إذ قال البرت اينشتاين أني أو من نالاه اسبينوزا الذي يتوحد مع الطبيعة وترك تأثيره على أن معه أوربا فقال عنه فريدريك نيتشه لدي سلف وأي سلف أما الأونري بارعنسون فقال لكل فيلسوف فلسفتان: فلسفة باروخ اسبينوزا فلسفنه الخاصة فلقد

خاتمة

كانت نظرية وحدة الوجود نسقا فلسفيا يريد أن يوحد بين الله والطبيعة وينافع عـــن الوحـــدة البيسكو فزيائية للإنسان من خلال القول بسلطان الضرورة والحتمية الكلية التي تخضع لها لكل من الطبيعة الطابعة والطبيعية المطبوعة ولقد رصف اسبينوزا باروخ طريقا للوصول إلى السعادة السامية الحقيقية وذلك عن طريق فهم الوحدة بين العالم والله.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- اسبينوزا باروخ (علم الأخلاق).
- اسبينوزا باروخ (رسالة في اللاهوت والسياسية).
- اسبينوزا باروخ (رسالة في إصلاح العقل).

المراجع:

- إبراهيم مصطفى إبراهيم (الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم).
- الفيومي محمد إبراهيم (الشيخ الأكبر ابن عربي).
- الوكيل عبد الرحمان (هذه هي الصوفية).
- البازغي سعد (المكون اليهودي في الحضارة الغربية).
- أ. هف توبي (فجر العلم الحديث).
- برهييه أميل (تاريخ الفلسفة في القرن السابع عشر)
- تومي عبد القادر (أعلام الفلسفة الغربية في العصر الحديث).
- تبودوري خوري عادل (مدخل إلى الأديان الخمسة الكبرى).
- جماعة من الأساتذة السوفيات (موجز تاريخ الفلسفة).
- ديوارنت ول (قصة الفلسفة من افلاطون إلى جون ديري).
- رسل براترند (تاريخ الفلسفة الغربية).
- رسل براترند (حكمة الغرب).
- رويس جوازيا (روح الفلسفة الحديثة).

- ستيس ولترنس (فلسفة هيجل).
- شاخت ريتشارد (رواد الفلسفة الحديثة).
- كلي رايت وليم (تاريخ الفلسفة الحديثة).
- كوتنغهام (العقلانية).
- كرم يوسف (تاريخ الفلسفة الحديثة).
- كرم يوسف (تاريخ الفلسفة اليونانية).
- محمود زكي نجيب (قصة الفلسفة الحديثة).
- مراد بركات محمد (البروني فيلسوفا)
- موروبيار فرنسوا (اسبينوزا الاسبينوزية)
- نصري هاني يحي (الإسلام والمعرفة الفلسفية).

المعاجم والموسوعات:

- الجهني مانع بن حماد (الموسوعة المسيرة في الأديان).
- صليبا جميل (المعجم الفلسفي).
- كونزمان بيتر – فرانز بوركارد بيتر، فيدمان فرانز، فايس أكسل (أطلس أكسل).
- هوندرتش تد (دليل أكسفورد للفلسفة).
- مغنية محمد جواد (مذاهب فلسفية وقاموس مصطلحات).

المقالات:

- الخويلدي زهير (أرشيف القلم العلمي، مجلة الأقلام الثقافية).
- أركون هادي (منهج سبينوزا في قراءة الكتاب المقدس).
- رتيبـــي محمد (قراءة في مواقف انتشتاين).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

كلمة شكر

مقدمة ..... أ

الفصل الأول: آليات ومتطلبات:

المبحث الأول: ضبط المفاهيم: 2

أولا: وحدة الوجود، وحدة الشهود، الحلول: 2

ثالثا:المرجعيات الفكرية والدينية لفلسفة باروخ سبينوزا: 7

المبحث الثاني: فلسفته 11

أولا: منهجه ونظريته في المعرفة: 11

ثانيا: مذهبه ونسقه الفلسفي: 20

الفصل الثاني: مصادر وحدة الوجود:

المبحث الأول: التأصيل لوحدة الوجود: 28

أولا: وحدة الوجود في الفلسفة الهندية (برهما): 28

ثانيا: وحدة الوجود الفلسفة اليونانية عند بارمنيدس: 30

ثالثا: وحدة الوجود في الفلسفة الإسلامية (ابن عربي أنموذجا): 32

المبحث الثاني: خلاصة مذهب وحدة الوجود عند االسبينوزا: 36

أولا: أدلة إثبات وجود الله: 36

ثانيا: صفات الله: 38

ثالثا: وحدة الجوهر: 42

الفصل الثالث: دراسته نقدية

المبحث الأول: أهم الانتقادات:..... 46

أولا: أهم الانتقادات التي وجهت إلى اسبينوزا: 46

ثانيا: النقد الموجه لوحدة الوجود كمذهب:..... 49

المبحث الثاني: أهم تأثيرات المذهب السبينوزي: 52

أولا: المجال الفلسفي:..... 52

ثانيا: المجال العلمي (فيزياء أينشتاين) : 56

خاتمة 64

قائمة المصادر والمراجع..... 67

فهرس الموضوعات 71